أسرار المدينة

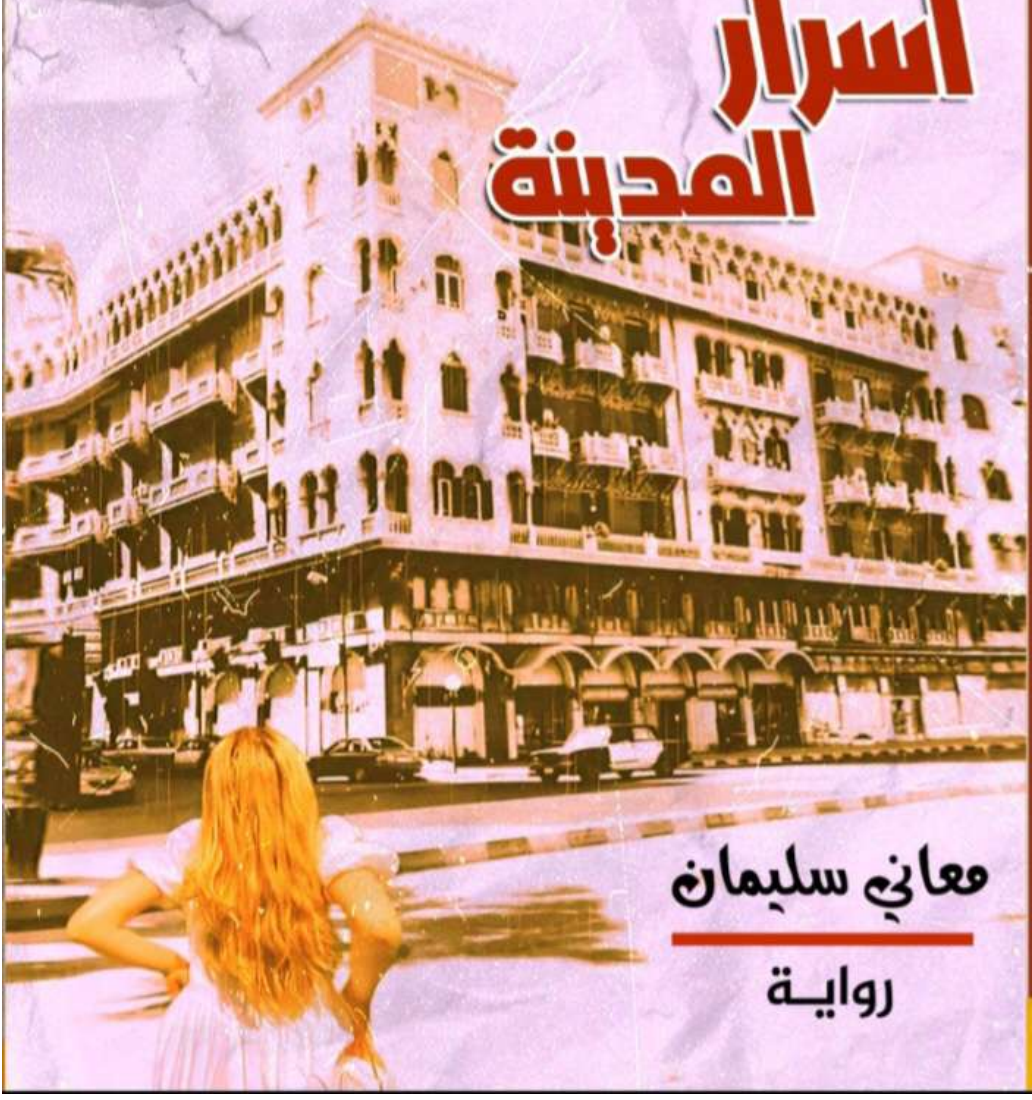

معاني سليمان

رواية

معاني سليمان
أسرار المدينة
رواية

رواية

أسرار المدينة

بقلم

معاني سليمان

طبعة أولى
٢٠٢٤

دار الرضا للطبع والنشر والتوزيع
رضا عبادة – أحمد رضا

اسم الكتاب: أسرار المدينة
المؤلف: معاني فرحان العيسى الجاسم
الشهرة: معاني سليمان
التصنيف: رواية
مراجعة فنية: محمد البنا
تصميم الغلاف: خلدون صقر
تدقيق لغوي: آلاء علي
إخراج فني: منى الغريب
شؤون إدارية: أروة رضا
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

٩ شارع فاطمة الزهراء من شارع الترابيع – الطوابق - جيزة
واتس : ٠١٠٩٠٢٧٢٧٧٦ / ت : ٠١١١٤٤٨١٤٦١

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
حقوق النشر والتوزيع محفوظة لدار الرضا
المحتوى الأدبي مسؤولية الكاتب بالكامل

إهداء

إلى عائلتي أغلى ما أملك...

إلى أستاذي الفاضل محمد البنا، وأخواتي كوثر حسن، آلاء علي، فائزة يحي ...

إلى الإسكندرية التي سَحرت الكثيرين قبلي على مرِّ العصور... إلى مدينة العشق والياسمين دمشق، وإلى كل من يَصله شذى ياسمينها عبر كلماتي...

إلى رواد الفكر العظماء الذين أثروا بكلماتهم وأفكارهم وأناروا طريقنا ،ودخلوا التاريخ من أبوابه الواسعة

مقدمة

عندما بدأت قراءتي لهذه الرواية القصيرة، لفت نظري رقة اللغة المستخدمة، كلماتٌ حية نابضة، تنساب من عبير الحرف إلى شغاف القلب بسهولة ويسر، وجملٌ بسيطة لا تعقيد فيها ولا ركاكة أيضًا؛ الإسمية منها والفعلية، وسردٌ يرصف للقارئ الطريق ويستقبله فاتحًا له قلبه مرحبا؛ لعمري ! إنها الألفة المتولدة بعفوية بين الكاتب والمتلقي، وإنها الحميمية التي جدلت سطور الرواية وعين القارئ ليكونا نسيجًا متصلا؛ لا تدرى أأنت الكاتب أم أنت المتصفح شديد الشغف بمواصلة القراءة؟

لا تدري أأنت تقرأ من خارج الكادر المشهدي، أم أنت أحد صانعيه!! متفاعلًا ومتعايشًا معه كأحد شخوصه...إنها البراعة السردية! سردية عفوية تلقائية نابعة من القلب فتجد طريقها إلى قلوب القراء بيسر وحب.

أسرار المدينة؛ رحلة عبر الزمن، تضعنا الراوئية المبدعة معاني سليمان في كابينة مركبتها الفضائية لتعبر بنا بقيادتها الحكيمة عبر قرن زمني إبحارًا في عكس اتجاه عقارب الساعة، ومن ثم تهبط بنا في نهايات القرن الماضي؛ قبل خمسين سنة من الحاضر الآني، وتتجول بنا- في سيارتها الخاصة التي كانت في انتظارنا على ممر الطائرات- لترينا معالم مدينة الإسكندرية القديمة وشواطئها

المتدة على ضفاف البحر المتوسط، فنرى على البعد فندقها الأشهر ميرامار، ثم لا نلبث أن ندخله نتجول في ردهاته ونقيم ليالينا في غرفه، ومنه تصحبنا لأمسيات الأدب والطرب مع نجوم تلك الحقبة الزمنية من فناني ذلك العصر وخيرة أدبائه أمثال توفيق الحكيم ونزار، ونتوقف كثيرا مع معجزة عصره الأديب الكبير الحائز على جائزة نوبل للأدب نجيب محفوظ، الذي تبتنى عليه عقدة الرواية وحبكتها، فننتقل مع مريم وخطيبها محمد من أحاديث الثقافة والطرب إلى ساحة التشويق والمغامرات.

مريم، امرأة ناضجة تعيش لابنتها أمل وبقلب ابنتها أمل، تصر الأحلام على مداهمتها كل ليلة، كما يصر سعيد؛ زوجها المنفصل عنها على مطاردتها، لتستقر الأحلام وتنحصر في حلمٍ واحد يتكرر ويتكرر ويتكرر، فتشعر بروحٍ تناديها أن أنقذيني، فتهب لنجدتها.

محمد ابن الإسكندرية البار المحب لوطنه ولتاريخ وطنه؛ يقع في حب مريم، ويتمناها زوجة له ورفيقة عمر، ولم لا وهي الطيف الذي يساكن أحلامه كلما غفا أو نام، يستيقظ فلا يجد لطيفها أثرًا! ولكن القدر عندما يريد لا راد له، فتجمعه الصدفة البحتة مع مريم، ويشاء القدر أن يلتقيا وأن تجمعهما مدينة الإسكندرية، وفندقها الأشهر وعقدة الرواية.

رواية شيقة يتضافر التشويق فيها مع بساطة السرد والتدفق السردي المتسارع صعودًا منذ البداية إلى النهاية.

وكما يقال أقول " جميلٌ أن نتعايش مع الواقع ومن ثم تعبر عنه أقلامنا الأدبية، ولكن الأجمل أن نتخيل الواقع ونصوره بمخيلتنا نحن لا كما تراه أعيننا، ومن ثم ترسمه أقلامنا حروفًا وكلماتٍ ومشاهد تنبض الحياة فيها ومنها "

وهذا حرفيًا ما قدمته لنا الأديبة السورية الروائية معاني سليمان؛ لوحةً تعبيرية عن واقعٍ متخيل....فكانت " أسرار المدينة".

محمد البنا

القاهرة في ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٤

***

نداء الغواية

عندما يُسدل اللّيل ستارته على قريتنا المعلّقة بين الجبال، وبعد أن يخلد الجميع للنّوم

أُمسك قلمي...

أُشعل فَتيل ذكرياتي

وأشرع بكتابةِ مذكّراتي من البداية...

عنّي وعن عائلتي وأصدقائي وعنها...

تلك المدينة البعيدة القريبة التي لم أكن قد زُرتها من قبل لكن جذورها تكمن في ذاكرتي

والتي اكتشفتُ فيما بعد أنّها تحمل من الأسرار أكثر مما تُفصح عنه.

لأبدأ أولًا بسردِ قصّتي من البداية، وما قبل البداية كلّكم تعرفونه، إذ كيف لا تعرفونه وأنتم هنا، نعم هنا في جواري؛ بجوار بيتي الحجري العتيق في قريتي الجبلية الجميلة بين المرتفعات و الغابات وأشجار السنديان و الصنوبر والينابيع التي تنساب بين الغابات

ومن أمام بيتي تنتصب الجبال شامخةً تحرس مدخلنا الشمالي، وجبال أيضًا تحفّ قريتنا من الجهةِ الجنوبية، لكنها أكثر ارتفاعًا وأكثر شموخًا.

جبالنا ليست جيريةً ولا صخرية، بل جبال يَرتع في تلالها الياسمين وأشجار اللّوز، وحدائق منازلنا تضوّع رائحة البرتقال، وتتدلّى من أغصانها عناقيد الكرز.

هذا ما كان قبل البداية الذي أنتم تعرفونه كما أعرفه، أمّا البداية فهي ما اختصّتني بها الأقدار دونًا عنكم، ولكن لأنكم أهلي وعشيرتي سأرويها لكم كما عِشت فصولها وأحداثها...

مثلما يحدث في الأساطير... كانت تلك النداهة الخفيّة في داخلي تناديني... تهمس لي، فأتبعها مسحورةً بلا إرادة، أُساق إلى مصيري الغامض، تظهر في أحلامي تغويني تناديني ، لأذهبَ إلى قدري المجهول... إلى ذلك المكان السحريّ الذي يبدو وكأنه خرج من إحدى الروايات ليدعوني إلى مغامرة في بلاد العجائب ،

إلى المدينة الأسطورية التي تطلّ على البحر الواسع المتلألئ والتي تبدو وكأنها هربت من عالمِ الحكايات، وعن ذلك الفندق الذي كان أشبه بكنزٍ نفيسٍ أو لوحةٍ سحرية تسحبك إلى داخلها لتعيشَ في عالمها السحريّ الذي يخطف الأنفاس.

كنت أرى أنني أقف على شرفتها الجميلة المميّزة بشبابيكها الخضراء الخشبيّة أستنشق نسيمَ البحر العليل وأمتّع نظري بمنظرِ البحر وهو يبدو وكأنّه يَلتحم بالسّماء، وأسمع صوت صفيرِ القطار الذي بدأ خافتًا مثل همهمةٍ غير مفهومةٍ في ضبابِ الذّاكرة، ثم أخذ الصّوت يرتفع معلنًا اقترابه من المحطّة، كنت أبدو وكأنني أعيش هناك؛ أحفظ المكان عن ظهرِ قلبٍ حتى بتُّ متأكدةً أنها لم تكن أحلامًا؛ كانت تلك ذاكرتي!

"من جمال الحياة أن الله يبعث في طريقك مَا يوقظك بين الحين والآخر ،أنت الذي ظَننتُ لوقتٍ طويل أنك مُستيقظ ".

جَلال الدينِ الرومي.

صباح قريتي ..ميلاد فرح

تسللت أشعة الشمس من على قمة الجبل الرخامي معلنةً ميلاد يوم جديد ، استيقظت الحياة وغردت العصافير ، وأشرقت الأرض بنور ربها ،

إنساب الضوء إلى شرفة منزلنا مع نسيم الجبل العليل المحمل بعبق الأعشاب الندية والازهار العطرية

ما أن تغمر الشمس الأرض بالضياء والدفء حتى تسمع عبارات التحية والترحيب من على الشرفات : صباح الخير ،اتفضلوا ، القهوة اليوم عندنا ، لا أحد يغلق بابه ، الأبواب والقلوب مفتوحة ، والقهوة لدينا نوع من التعبير عن الحب والمشاركة .

عُدت من المدرسة التي أعمل فيها معلّمةً للّغة العربيّة، وضعت حقيبتي وكتبي، سمعت صوت خالتي أم وليد يناديني من المطبخ...

- مريومة نحن هنا تعالي.

غسلت يديّ ووجهي وغيّرت ثيابي وارتديت فستانًا قطنيًا، دخلت إلى المطبخ حيث كانت خالتي وجارتها أم عزيز منهمكتين في تحضير (الشيش برك) كانت رائحة اللّحمة المطهوّة مع البصل والمتبلة بالفلفل تملأ المكان، كانت أم عزيز تمدُّ العجين باستخدام (الشوبك) ثمّ تقطّعه لدوائر صغيرة، أمّا خالتي فكانت تأخذ الرّقائق

وتحشوها ب اللّحمة وتُغلقها بعناية، بينما كانت طفلتي أمل تقلّدهما وتلعب بقطعةِ عجينٍ زائدة أعطتها لها خالتي.

قالت لي خالتي:

- مريومتي ضَعي اللّبن على النّار وحرّكيه حتى يغلي.

ارتديت مِريلة الطبخ ورحت أقلّب خليطَ اللّبن والنّشا على النّار.

سألت جارتنا أم عزيز: كيف أصبحت آلاء؟

ـ لقد استقرّت حرارتها أخيرًا - الحمد لله - وستستعيد عافيتها، كلّ ما عانت منه المسكينة كان سببه خطيبها سامح لا سامحه الله ولا عفا عنه.

قاطعتها خالتي متسائلة:

- لكن أخبريني حقًا اختفى سامح خطيبها بلا سبب؟!

- للأسف اختفى فجأةً بعد أن كان يَعدها بالحب والحياة الورديّة، وبيت يجمعهما، لكن ظروفه يا عيني لم تسمح له ولم تمكّنه من الوفاء بوعوده؛ لذا طلب من آلاء أن تستلفَ من والدها ليموّل مشروعه، وابنتي عزيزة نفس يستحيل أن تطلبَ معونةً حتى من والدها، فأخبرت سامح بصراحة أنّها لن تطلبَ شيئًا من أحد، وبأنه عليه أن يكون رجلًا ويعتمد على نفسه ويتحمّل مسؤوليته.

- خيراً فعلت ، أَمِنَ البداية يريدها أن تستلف؟! هكذا إذًا! بعد أن يتزوّجا ربما سيجعلها تبيع حتى ملابسها.

– وحياة عيونك؛ اختفى بعد أن رفضت عرضه ولم يعد يردّ على رسائلها واتصالاتها، ودخلت هي في حالة صدمة واكتئاب وأهملت صحتها ونفسها.

– الحمد لله الذي نجّاها منه وكشف لها حقيقته قبل أن تتزوّجه وتتورّط.

– الحمد لله على كلّ حال، لكنّها تحبّ سامح وما تزال متعلّقة به ولا تصدّق أنّه رحلَ ببساطة.

– ربما يا أم عزيز، قد رحل لكنّه علّمها أهمّ درسٍ في الحياة، علّمها أن تقول (لا).

بعد أن أنهينا غداءَنا وانتهيت من غسل الأطباق وتجفيفها وتنظيف المطبخ أخذت حمامًا دافئًا وغُصت في فراشي الوَثير.

مكانٌ مظلمٌ مُقفر، بقايا أعمدة، مدرّجات متآكلة، أحاول أن أتحسّس موضعَ قدمي في الظّلام، أقع في حفرةٍ لأجد نفسي داخل سردابٍ مظلمٍ وبارد!

صوت أنينٍ في الظّلام، أحاول أن أقتربَ من مصدرِ الصّوت بحذر، بدأ الصّوت يعلو أكثر فأكثر كلّما اقتربت

أسمعه ينادي... " أنقذيني؛ تعالي يا مريم أنقذيني... "

أقتربُ أكثر فأكثر، فأجدُ رجلًا وقورًا يرتدي نظارةً طبية، يبدو وجهه مألوفًا لي، ولكن أين رأيته؟!!

من هذا الذي يستنجد بي وممَ أنقذه؟ ولمَ أنا بالذّات؟!!

استيقظتُ من حلمي على لمسات أصابع أمل وهي توقظني، وشفتيها الجميلتين تقبّلاني...

- ماما هيا لنذهب للّعب، ماما لقد وعدتني أن نذهبَ للّعب في الحديقة.

- أكيد يا حبيبتي... أحضري لي المشط لأمشّط شعرك.

مثل شلالٍ ذهبيّ كان شعر طفلتي يلمع تحت الشّمس، وتشرق عيناها الصّافيتان بلونِ الزمرّد، ألبستها فستانها وتجهزتُ أنا، ثم ذهبت إلى الشرفة حيث كانت تجلس خالتي وهي تُمسك مُصحفها وتقرأ القرآن.

قلت لخالتي:

- سآخذ أمل ونذهب إلى الحديقة.

- مع السّلامة يا روحي اذهبا ولكن لا تتأخرا.

كنتُ أُقيم مع خالتي أم وليد منذ أن عدتُ من الغربة، عُدت إلى وطني هاربةً من جحيم الزّواج .

مطلقةٌ أحمل طفلتي بيدي، لم يتقبّل والدي هذا أبدًا، جنّ جنونه وأصرّ أن أعودَ إلى طَليقي،

قرّرت أن أغادرَ بيت أهلي إلى بيتِ خالتي أم وليد، تركت لهم رسالةً أودّعهم فيها وأخبرهم بقراري عدم العودة إليهم مجددًا ولا إلى طليقي.

وأنا بالطريق تذكّرت مقولةً لجلال الدين الرومي: (لا تنزعج إذا انقلبت حياتك رأسًا على عَقب، فكيف تعرف أن الجانب الذي اعتدت عليه، أفضل من ذلك الجانب الذي سوف يأتي!)

استقبلتني خالتي بالأحضان ، آوتني واحتضنتني، كانت ترى بي وبطفلتي عزاءً لها ، لأنها أصبحت تعيش وحيدةً في بيتها، بعد أن استشهدَ ولدها الأصغر جاد، وفُقد وليد، فلا تعرف له أثرًا، ولا تسمع عنه خبرًا.

كادت خالتي أم وليد تموت حُرقة وحَسرة ، لولا أنّ الله أرسلنا لبعضنا لنلملمَ أحزاننا ، ونطبطب على بعضنا،

قدّمت أوراقي وعدت إلى العملِ بمهنةِ التّدريس، وفي المساء كنت أُمسك أوراقي وقلمي وأبدأ بكتابة أفكاري، كانت الكتابة علاجًا وشفاءً لي، كنت أكتب لأنجو...

يقول الممثل والكاتب إيثان هوك:

" مُعظمنا لا يفكّر في الشّعر، ولا نهتمّ لقصائد آلان غنسبرغ أو غيره من الشّعراء، حتى يموت لنا شخصٌ عزيز، حتى نذهبَ إلى جنازة، نفقد طفلًا، أو نقع في الحبّ، فجأةً نصبح مهووسين بمحاولة فهم ما يحدث، هل شَعَرَ شخصٌ قبلنا بهذه المشاعر؟ وكيف تمكّن من النّجاة؟ حينها لا يصبح الفنّ والشّعر ترفًا، بل ضرورةً وحاجةً أساسيّة للنّجاة ".

راحت أمل تتمرجّح عاليًا في الهواء، وسرعان ما كوّنت صداقات، وأصبحت هي وصديقاتها الجدد يلعبنَ سويًا ويتضاحكن، وأنا أراقبها وأشجّعها.

غفلت عنها قليلًا وأنا أكتب بعض الملاحظات بمفكّرتي ثمّ رفعت رأسي لأجدها أمامي وهي تحمل آيس كريم بالشوكولا، قلت لها: " أمل من أين جئت بهذا؟! " قالت لي: من (سانتا) الطيب. قلت لها ألم أحذّرك ألا تأخذي شيئًا من الغرباء ولا تتكلّمي معهم؟!! أمسكت بيدها وقلت لها: " هيا لنعد إلى المنزل ".

وفي الطّريق قالت لي: " سانتا الطيب ليس شريرًا يا أمّي".

عُدنا إلى المنزل بعد أن اشترت علبة ألوانٍ جديدة ودفتر تلوينٍ وبسكويت وعصير، وكانت تطير من الفرحة وتبتسم لي وتقبّلني وأنا فرحةٌ لفرحها.

ما أبسط الحياة حين تكون في عمر السّابعة! أقلّ الأشياء تبهجك وتسعدك، ربما هذا هو مفهوم السّعادة فعلًا، ولكنّنا نحن الكبار نعقّد الأمور قليلًا!

بعد أن اغتسلت أمل وبدّلت ملابسها وتناولت عشاءَها؛ ذهبت إلى فراشها ونامت.

مررتُ إلى منزل جارتنا أم عزيز لأطمئنّ على صديقة عمري آلاء.

كانت آلاء فتاةً جميلة رقيقة حالمة، تمتلك عينين سوداوين واسعتين ، وشعر أسود حريريّ ينسابُ كخيوط اللّيل على كتفيها، بشرتها قمحية جذابة ، ملامحها البريئة كانت توحي برقتها ونقائها، لكن مزاجها كان كعواصفِ الرّبيع، يتبدّل سريعًا بين الوضوح والغموض، وبين الاكتئاب والفرح.

في لحظةٍ ما تجلس وحدها حزينةً تتأمّل أسرار العالم، وكأنّها تسترق السّمع لهمساتِ الأحلام التي تدور حولها، وفي اللّحظة التي تليها تنفجر ضاحكةً كأنّها شعلةٌ من الفرح، لكن منذ أن غابَ سامح خطيبها لم أعد أسمع ضحكتها.

نظرت إليها وسألتها:

- هل أنتِ بخير يا لولو؟

أجابتني:

- أشعر بالاختناق يا مريم؛ سامح خطيبي الذي بنيت كل آمالي عليه؛ أصبح يتهرّب منّي، ولم يعد يردّ على اتصالاتي... أنا لا أستوعب أنّه رفضني! هل هناك أحد يرفضني أنا؟! ربما حتى في أحلامه لم يكن يتمنّى أن يحصلَ على امرأةٍ مثلي، ولم يكن يحلم أن تحبّه امرأة بقدرِ ما أحببته، لكن حبّي وإخلاصي له لم يكن يكفيه؛ كان يريد مني عطاءً بلا حدود، بلا أيّ شيءٍ بالمقابل...!

بلى كان يُعطيني الأمان بالمقابل؛ الأمان الذي جعله يخونني مرارًا، ويجعلني في حالة خوفٍ دائمة؛ من أن يتخلّى عنّي ويغادرني إذا وجدَ البديل، وعندما كنت أصارحه بهواجسي؛ كان يقول لي:

" أنتِ يجب أن تتفاني في حبّي، أن تجتهدي لإسعادي وراحتي، أن تملئي عينيّ حتى لا أبحثَ عن بديلٍ لك! "

كانت علاقتي معه مرهقة، استنزفت طاقتي ومشاعري، لكني كنت أخشى مع هذا تركه لي، لا لشيءٍ إلّا لأنه أماني الوحيد، ولأنّي في

كل مرةٍ أقرّر تركه فيها؛ يمتلئ قلبي بالخوف والوحشة... سارت علاقتنا بين مدٍ وجزر هكذا إلى أن قرّر أن يختفيَ بعد اللّيلة التي اعتذرت فيها عن تلبيةِ طلبه لتمويلِ مشروعه، كنت أريد أن أرى ردّ فعله! إن رفضت له طلبه...

هو الذي برّرت له كثيرًا من أخطائه وتقصيره، لكنّني لم أتوقّع أبدًا أن يختفيَ نهائيًا، ولا يُجيب على مكالماتي وهو الذي يعلم كم أنا ضعيفة ووحيدة وخائفة بدونه!

فكرتُ وقتها بالانتحارِ والهرب من هذه الحياة، في ذلك الوقت العَصيب الذي كنت أمرّ به، وكلّما مرّ عليّ، كان يستمرئ عذابي وحيرتي...

قلت لها: مجنونة أنتِ، من أجل مَن كل هذا؟! من أجل سامح؟ أنت محظوظة لأنك نجوتِ منه قبل فوات الأوان .

قالت آلاء :قلتي لي أن لا أصدقه وأن لا أثق به ، لكنني صدقت ووثقت ،ظننت أنه يحبني ، وأن حبي له سيغيره ،ولكن الحب وحده لايكفي لتحويل الوحش إلى أمير، إلا في الحكايات ، أنا أتألم يامريم ،قلبي يؤلمني كثيراً .

_ستتألمين يالولو وتحزنين وتبكين ،لكنك في النهاية ستنسينه إنها مسألة وقتٍ فقط ، لا بأس أنا معك وبجانبك .

أسأل الله أن يمسحَ على قلبك، فالحزن لا يليق بعينيك الجميلتين وقلبي لا يحتمل رؤية حزنك أبدًا... أحبك يا لولو هيا افرحي وابتهجي لأنك تستحقين الفرح... انظري ماذا أحضرت لكِ معي... علبة من الشوكولا الغامقة النّوع الذي تفضلينه.

ابتسمت آلاء لي...

قلت لها: هيا انهضي، اغسلي وجهك، اضحكي، ارقصي، غنّي... أنا بجانبك، ولن أتركك أبدًا، اطمئني يا حبيبتي.

دمعت عينا آلاء واحتضنتني وهي تقول: أدامكِ الله لي يا مريومة.

أشرق وجه آلاء بابتسامةٍ رقيقةٍ مثل فراشة، وراحت تتحدّث ولا تتوقّف عن الكلام، وتضحك ثم تقف لتقلّد طريقة حديث الأشخاص أو مَشيتهم وأنا أنظر إليها مسرورة، لأنّها أخيرًا قرّرت أن تخلعَ عنها ثيابَ الحزن.

غريبٌ هو الحزن كيف ينتهي بكلمة، كلّ تعب وحزن الشّخص ممكن أن ينتهيَ بكلمةٍ لطيفة، بضحكة، بحضن، بمكالمة، برسالة... طمئنوا أحبّتكم وأخبروهم أنّكم معهم.

" كتروا من الحب " فالدّنيا بدون الحبّ والدّفء والحنيّة لا تُعاش.

أعدّت آلاء لنا فنجانين من القهوة ووضعت قطعًا من الكنافة بالجبن في طبقين صغيرين، ووضعتهما على الطّاولة، وقدّمتها لي وقالت: تذوّقيها إنّها ساخنة لقد أعدّتها أمّي منذ قليل.

ودّعتها وقد تحسّن مزاجها وعدتُ إلى المنزل...

...

كنت قد أنهيت روايتي الأخيرة (شمس) وأرسلتها إلى النّاشر الذي أخبرني أنها حقّقت نجاحًا ملموسًا، ودعاني لإقامة حفل توقيعٍ

في إحدى المكتبات للترويج لروايتي ومقابلة قرائي، لم أتخيّل نفسي أوقّع الكتب أو أتحدّث أمام جمهور... لقد كتبتُ لأني وجدت بقلمي متنفسًا لي، كنت أكتب لأتشافى، لأتعافى،لأنجو من الحزن والوحدة، ولم أتوقّع يومًا أن يكون لما أكتبه كلّ هذا التأثير... الحمد لله أن تعبي واجتهادي كلّ تلك السّنين لم يذهب سدى، وها أنا أحصد ما زرعته.

***

ملاذي الآمن

استيقظت باكرًا ،تململتُ في فراشي ، نهضت بخطى متثاقلة ،تقدمت نحو النافذة وفتحتها ،تسلّلت أشعة الشّمس الشقيّة إلى داخل الغرفة ،مع نسيمُ الجبال العليل المحمّل برائحةِ الحبق واللافندر والجوري، وكانت العصافير تغرد من فوق الأشجار على أنغام موسيقى الحياة والحب فتملأ المكان بالبهجة ، رُحت أتأمّل منظرَ الجبال التي تُحيط بنا المغطّاة بسجادةٍ خضراء من السّهول والمروج الشاسعة والغابات، وبأشجار الفواكه المختلفة من الرمّان والتّين والتّوت واللّيمون وغيرها على مدّ البصر...

لا يستطيع المَرء سوى أن يقعَ في حبّ قريتنا تلك الجنّة الصّغيرة في وسط الجبال السّاحرة، والغابات والأشجار ذات الأغصان الوارفة،

وكأنك تشاهد لوحة طبيعية أو تقرأ قصيدة شعرية

السّماء صّافية وأشعة الشّمس تتغلغل بين الأشجار وتُنير الأرض بنورها، والنبع ينسابُ كحزامٍ حريريّ يتدفّق منه ماءٌ باردٌ في عزّ الصّيف - كانت خالتي تقول: " إنّ مياه النّبع حنونة من يشرب منها سيعود ثانية ".

سبحان الله!!

هنا بين أحضان الطبيعة يقف الإنسان منبهرآ أمام عظمة الخالق وإبداعه، متفكرآ بآياته ومخلوقاته

هنا حيث يصمت الضجيج ويعلو صوت السكون، يتأمل المرء ذاته ويشعر بروحانية المكان، مستمدًا من سحره عزيمة لمواجهة الحياة بقوة وثبات .

كلّ التّفاصيل في قريتي ساحرة، البيوت المصنوعة من الحجارة والتي تدخلها الشّمس من كلّ اتجاه،

البيوت دائمًا نظيفةٌ وأنيقة وجاهزة لاستقبالِ زوّارها، الجميع في القرية بشوش ويرحب بالزّوار،

أغلب السكّان من كبار السنّ فأغلب أبنائها وشبابها يدرسون أو يعملون في المدينة.

كان بيت خالتي كذلك يزخر بالتّفاصيل الدّافئة ودائمًا رائحة البيت مليئة برائحة اللّيمون المُنعشة وكلّ شيءٍ فيه منظّم وفي مكانه.

خزانةٌ خاصّة بالشّراشف والأغطية، خزانةٌ أخرى للمناشف مرتّبةٌ حَسب الحجم، درجٌ خاصّ لصابون الغار الأصليّ بزيت الزّيتون الذي تشتهر المنطقة بإنتاجه، درجٌ للكريمات والبودرة والمشط، كان كلّ شيءٍ مرتب بعناية، الفاترينة الزجاجيّة التي وُضِع بها فناجين روميو وجولييت وكاسات العصير المذهبة وأطقم الشايّ الخزفيّة.

المطبخ مليء بمرطبانات (المونة) التي تعدّها خالتي من خيّرات أرضنا من الأجبان والزّيتون والمربيات،التي تتفنن السيدات لدينا في صنعها .

أعددت فنجانين من القهوة لي ولخالتي، أعطتني خالتي باقةً من أزهار اللافندر أخبرتني أنّها قطفتها بالأمسِ لي لأضعها بين ملابسي، كانت هداياها الصّغيرة تُفرحني كما يُفرحني حديثها ،كنا نجلس بالصالة وكان الباب مفتوحًا، وكانت الجارات وسيدات

القرية يمررن من جانب البيت فيلقين التحية فترد خالتي وتدعوهن الى مشاركتنا القهوة.

رنّ جرس هاتفي...

- أستاذة مريم... معك الأستاذ مجدي حسن من مصر... لقد رشحت روايتك (شمس) ليتمّ تحويلها إلى فيلم... وقد أُعجب المخرج بها، أتمنّى منكِ أن تحضري إلى الإسكندرية لمناقشة التّفاصيل.

ذُهلت ولم أصدّق ما سمعته، بشّرت خالتي التي هنأتني ودَعت لي أن يوفّقني الله لكلّ خيرٍ وييسر أموري.

رحت أستعرض على الإنترنت صورًا لمدينة الإسكندرية... سحرتني تلك المدينة بتاريخها وجمالها، وبينما كنت أستعرض الفنادق الموجودة فيها؛ ذُهلت عندما رأيت صورة ذلك الفندق الذي كان يظهر في أحلامي! وجدت كما هو بتصميمِهِ المميّز وموقعه الفريد وشرفاته الجميلة؛ لم أصدّق أنَّ حُلمي كان حقيقيًا... بنسيون فؤاد "ميرامار" ضغطت على الصّورة...

يقع البنسيون على كورنيش الإسكندرية بجوار شريط الترام وميدان محطّة الرّمل، كتب عنه نجيب محفوظ روايته الشّهيرة ميرامار، وتمّ فيها تصوير فيلم يحمل نفس الاسم من بطولةِ شادية ويوسف شعبان.

.....

الآن اتّضحت الرّؤية؛ إنّها الإسكندرية إذن... بطلة الرّوايات والحكايات والأحلام.

قطر النّدى، نفثة السّحابة البيضاء، مهبط الشّعاع المغسول بماء السّماء، وقلب الذّكريات المبلّلة بالشّهد والدّموع.

هكذا يفتتح نجيب محفوظ روايته ميرامار التي تدور أحداثها في الإسكندرية.

إنه هو فعلًا... كنت أعلم أنني رأيت ذلك الوجه من قبل، بالطّبع إنّه نجيب محفوظ، هو مَن كان يظهر في أحلامي ويستنجد بي!

....

لا أفهم شيئًا! لم أشاهد الفيلم يومًا أو أقرأ الرواية، ولم أسمع قبل بذلك البنسيون، ولكنّي أعرفه بكافةِ تفاصيله!

.....

كنا عائدتين في طريقنا من المدرسة أنا ومعلّمة اللّغة الفرنسيّة صديقتي المجنونة... آلاء... فجأة ابتسمت ابتسامةً خبيثة وقالت:

- لقد خطرت ببالي فكرة نقتل فيها المَلل؛ لنطرق أبواب البيوت ونقرع الأجراس ثمّ نهرب،

وكأنها تنتظر موافقتي... قامت بتنفيذ الخطّة على الفور، وراحت تقرع الأبواب وتركض ضاحكةً حتى وصلت إلى مدخل بناءٍ راقٍ، وقبل أن تقتربَ من الباب فاجأها صوت الحارس... " قفي مكانك " فلاذت بالفرار كالأطفال وتركتني واقفةً بذهول! لأعتذرَ من الحارس على إزعاجهِ وأنا عازمة أن تكون هذه آخر مرةٍ أخرج فيها برفقتها.

بجوار باب بيتنا كان يقف ينتظرني، كادَ قلبي أن يتوقف نبضه من الصّدمة، كابوس أحلامي، طليقي سعيد

طليقي... والد ابنتي أمل الذي لا يتوانى عن قهري ولوي ذراعي وتهديدي بأنّه سيأخذ حضانة ابنتي، ولم يقف في صفّي أحد!

كان والدي يؤيّد طليقي في أيّ شيءٍ يفعله، ويضغط عليّ لأعودَ له بعد كلّ ما فعله بي من ضربٍ وإهانة!

كان يقول لي: " ما المشكلة في ذلك إنه يربيكِ؛ أنتِ زوجته والشّرع أمره بهذا، تعلّمي من أخطائك وكوني امرأةً مطيعة، كلّ النّساء يُضربن، ولا يولولن مثلك! "

وبعد أن نلتُ حرّيتي وتحرّرتُ منه، غَضب منّي والدي بشدّة، وكان يقول لي: " أنتِ من اخترتِ الطلاق فتحمّلي النتائج! "

سعيد كان يرى المرأة خُلقت للخدمة والإنجاب، لا مشاعرَ لها ولا حقوق، منذ أن تحرّرت منه وهو مصممٌ على إلحاقِ الأذى بي... رفضَ أن يدفعَ نفقة ابنته ، مما جعلني أشعر بخوفٍ دائم، وأعيش في حالة قلقٍ وحذر.

متى عادَ من الغربة؟! وماذا يريد مني؟!

استجمعت شجاعتي واقتربت منه وقلت: " نعم لمَ تقف عند باب بيتنا؟! "

- أريد أن آخذ ابنتي، لن أرضى أن تبقى عند كاتبة حبّ وقصص غرام... هلَّا أخبرتني يا حضرة الكاتبة

ممن تستقينَ أفكارك؟ ولا تقولي لي أنها مَحض خيال.

قلت له: لن أبرر لك شيئاً ، ابنتي لي ولن يأخذها أحد منّي ولا أريد أن أرى وجهك ثانية.

خرجت خالتي على صوتي وتفاجأت به... نظرت إليّ: " قلت لها يريد ابنتي ".

اقتربت منه وقالت الآن تذكّرت أن لديك ابنة؟! اذهب يا سعيد من هنا ولا تعد ، وإلا سأنادي كلّ الجيران ليروا كيف تتهجّم على النّساء في بيوتهن.

غادر سعيد خائبًا بعد أن تبعثرت كرامته، ولكنّي كنت أعلم أنها ليست آخر مرةٍ سأرى وجهه فيها.

....

سكبت خالتي الشاي في فنجاني وهي تقول لي:

- اهدئي يا حبيبتي واشربي هذا الشاي باللّيمون سيهدِّئ أعصابك، لن يؤذيك أحد طالما أنا حية.

قلت لها: أطال الله عمرك يا خالتي وحفظك لي، أنت كلّ أهلي ودنياي.

- على سيرة أهلك يا مريم... دعانا والدك إلى العشاء غدًا، ما رأيك أن نذهبَ ونزورهم...

- اذهبي أنتِ يا خالتي، أنا لن أذهب.

- متى آخر مرةٍ اتصلتِ بوالدك وسألتي عنه؟

- ومتى آخر مرةٍ اتصل هو وسأل عنّي؟! القسوة بالقسوة وأنا عاهدت نفسي أنني لن أدوسَ بقدمي عتبة ذلك البيت مجددًا.

***

الخالة أم وليد

تولّت خالتي رعايتي والاهتمام بي منذ أن توفيت والدتي وأنا في الخامسةِ من عمري، تربّيت ونشأت مع أولاد خالتي جاد الذي كان مقاربًا لي في العمر، ووليد الذي كان يكبرنا والذي كان بمثابة أبٍ صغيرٍ لنا بعد وفاةِ والده وغياب والدي الدّائم.

والدي حاول الهروب من مأساةِ وفاة والدتي بالعملِ والسّفر الدّائم بعد أن أوكل مهمّة رعايتي لخالتي، عادَ والدي مرةً من السّفر وأتى ليأخذني من منزل خالتي بكيت وتوسلت إليه كثيرًا أن أبقى لكنّه رفض ورفض توسلات خالتي لكي أبقى.

ونحن في الطّريق أخبرني أننا سنستقرّ في بيتنا ولن أعود إلى بيت خالتي، لأنني كبرتُ ولا يجوز أن أسكنَ في بيتٍ فيه أولاد غرباء، غرباء! إنهم إخوتي، من متى أصبحت تتحدّث عنهم وكأنهم غرباء وأنت الذي تركتني لهم سنوات طويلة؟!

قال لي: لقد تزوّجت في الخارج والآن أصبح لديكِ أمّ وأخوة وعائلة لستِ يتيمةً أو مشردةً ليَعطف عليك أحدهم.

لم يكن لديّ أي خيارٍ سوى الصّمت، كانت حياتي في بيتنا أسوأ مرحلةٍ عشتها، كلّ شيءٍ أريده يجب أن أدخلَ في صراعٍ ليوافقَ عليه... زيارة صديقتي لي، شراء مجلّة فنية، كاسيت، شراء فستانٍ ملون بألوانٍ زاهية...

كانت زوجة أبي متزمّتة وصارمة جدًا، ولم تكن تُطيقني ودائمًا تقول إنني متمرّدة ويومًا سأعاقب على أفعالي، وكانت تحرّض والدي عليّ وتحذّره من التّساهل معي، وكان أبي يمنحها السّلطة المُطلقة عليّ وعلى كلّ حياتنا؛ لأنها أدرى بتربيةِ البنات ولأنّها تفعل ذلك لمصلحتي، وتقول لي: " ***اكسر للبنت ضلع يطلعلها ٢٤، لازم تخاف وتشوف العين الحمرا حتى تتربّى وتكون فتاة صالحة ومطيعة...*** " وغيرها من أساليب التّخويف والتّرهيب وكسرة النّفس، التي صنعت داخلي خوفًا وشعورًا بالعار والتّأنيب...

ما زلت أذكر الحرب التي خضتها معهم عندما أنهيت المرحلة الثانوية لإقناعهم بإكمال دراستي في الجامعة، فاستعنت بخالتي لإقناعهم، كان أبي يحترم خالتي كثيرًا، ذهبتْ إليه وحدّثته بشأني، فقال:

- يا أم وليد تعرفين مكانتك عندي، لا أردّ لكِ طلبًا إلا هذا، ليس لدينا بنات تذهب إلى الجامعة، البنت مَصيرها لبيتها وزوجها.

قالت خالتي:

- وأنا أعلم أنك لن تردّني خائبة، الشّهادة أمان وضمان للمستقبل، نحن لن ندومَ لها العمر كلّه يا أبو مريم، ماذا لو أفلسَ زوجها، أو لم تتوفق معه، أو توفي وترك لها أطفالًا، يجب أن تنالَ شهادتها وأن لا نحرمها هذا الضّمان. صمت أبي على مَضض، أكملت خالتي...

- ألستَ واثقًا بتربية ابنتك؟

قال أبي: طبعًا أنا واثقٌ بها. - إذا دَعها تكمل ولا تكن عقبةً في طريقها على العكس ادعم أحلامها، وقِف معها، وأضعف الإيمان أن لا تقف عائقًا في طريقها إن لم تكن تريد مساندتها، دَعها تقرّر مصيرها وتتحمّل مسؤولية اختيارها، تخلّى عن لغة التّهديد والتّحذير من العقوق والتّخويف بالله، واستعمالها كوسيلةٍ للضّغط والتحكّم بابنتك المسكينة، ادعمها بنصحك ومشورتك، احتويها بِحبك، إنّها بنتك وقطعة قلبك، إذا كنت تحبّها دَعها تختار حياتها وتقرّر مستقبلها...

نادتني خالتي تعالي يا مريم قبّلي يد أبيك ورأسه،

رضا الله من رضا الوالدين يابنتي.

أقبلت عليهم قبّلت يد والدي ورأسه، نظرَ لي والدي بحنانٍ وقال لي: ستكملينَ دراستك وأنا واثقٌ من أنكِ بنت ذكية وعاقلةً ومجتهدة وستنجحين.

أحد أسباب قبولي الزّواج من سعيد أن أتخلّص من الحياةِ البائسة التي كنت أحياها في بيتِ والدي ومضايقات زوجة أبي المستمرّة لي، ومكائدها التي لا تنتهي، كان الزّواج هو الخيار الوحيد المتاح لي للخلاصِ من تلك البيئة أما الخيار الثاني فكان الموت.

.....

اتصلت بي آلاء لتعرضَ عليّ الذّهاب إلى البحر لنتمشى قليلًا ونروّح عن أنفسنا وكنت أنا بأمسّ الحاجة لهذا...

كان البحر، هائجًا والرّيح تعصف والسّماء تبدو حزينةً مظلمة، كنا جالستين أنا وآلاء على كرسيين بجانبِ البحر نتأمله وأنا أسرح في أفكاري، قلت لها:

- أتعلمين يا آلاء... هذا الكلام الذي في صدري يخنقني يحرقني، أتمنى لو أخرجه لكنّه يستحيل دموعًا ساخنةً وأعجز عن الكلام والتّعبير.

أمسكت آلاء بيدي وقالت لي وهي مبتسمة:

- لنفعلها، لقد رأيتها يومًا في مسلسل... لنصررخ بكلّ قوّتنا... اصرخي يا مريم أخرجي كل الذي بداخلك.

أخذت نفسًا عميقًا وصرخت... آآآآآآآآآآه.

ابتسمت لها لقد نجحت الخطّة.

صرخت ثانيةً آآآآآآآآآآه وأنا أفرغ كلّ مخزوني من القهرِ والحَسرة.

نظرت إليّ آلاء وصرخت بدورها فخرجت الآهات منها حزينةً تائهةً، ثمّ راحت عيناها تدمع... احتضنتها وأنا أقول لها ستتجاوزينه سيكون كل شيءٍ بخير يا فراشتي الرّقيقة

***

عودة الغائب

في إحدى ليالي قريتنا الهانئة كانت خالتي وأم عزيز مجتمعتين على التّلفاز يتابعان مسلسلهما اليومي... (سابع جار).

وأنا كنت غارقةً في قراءةِ روايةٍ ساحرة (متاهة الأرواح) وتاهت روحي بين صفحاتها،

وكانت أمل سعيدة بعلبةِ ألوانها الجديدة وتلوّن في الكرّاس، سمعنا صوت طرقٍ على الباب،

من يَطرق بابنا في هذه السّاعة؟! الظّلام في الخارج دامس ولم أستطع تحديد وجه أحد من العين السحريّة، كان الطَّرق متواصلًا... قلت لخالتي:

- لا بدّ أنه سعيد فليبقى يطرق إلى الغد، لن أفتح له.

قالت خالتي:

- لو اقتربَ منكما سآخذ روحه.

سألت: مَن؟

أجابني الطّارق: افتحي... يا متمردة.

ذُهلت، دَمعت عيناي لا أحد يناديني بهذا سواه.

- نعم، افتحي أنا وليد.

قفزت من الفرحة كانت أطول مسافةٍ في الدّنيا هي المسافة بين فتح الباب ورؤيته، كادت خالتي أن يتمزّق قلبها من هَول الصّدمة، راحت تشهق وتبكي وتضمّه وتشمّه وتقبّله... كان كلّ منهما يضمّ الآخر ويحتضنه ويقبّله وهما يبكيان...

راحت خالتي تشمّه...

- ألف الحمد لله يا ربي... والله كان قلبي حاسس إنك عايش بس ما حدا صدقني.

ظنّنا أنه قُتل، لكنّه وقع أسيرًا ثم أطلق سراحه فيما بعد بصفقة.

سألته خالتي هل عذّبوك يا حبيبي؟ هل قسوا عليك؟

نظر إليها وليد بعطف: أنا هنا الآن يا أمي لقد عُدت وهذا هو المهمّ، لننسى كلّ ما مرّ بنا ونتعايش يا أمي، لقد عُدت من الموت لأجلك يا حبيبتي.

***

وليد

وليد ملاك بصورة إنسان، كان كلّ مَن يراه يقع في حبّه، ويودّ لو يعترف أمامه بخطاياه وآثامه كلّها، كانت في وجهه هذه الرّاحة والألفة التي لا تَجدها عند أي شخصٍ .

صديق وفيّ، أخٌ حنون ورجلٌ قويّ صابر، يحتمل كثيرًا ولا يحبّ أن يُظهر أو يشكو، تحمّل المسؤولية صغيرًا منذ وفاة والده يتعاطف مع الكلّ وقلبه مفتوح للجميع، كان بمثابةِ أخي الكبير، وكنت الأخت المدلّلة لأبناء خالتي.

جاد كان بعمري، كان لكلّ واحدٍ منهم شخصيّته، لكن يجمعهم الأدب والتّهذيب والأخلاق بشهادة كلّ مَن عَرفهم.

وليد كان أخي ومرشدي وصديقي، كنت أشكو إليه كلّ ما يمرّ بي، وكان دائمًا يساعدني ويقف في صفّي، قبل أن يذهبَ إلى الجبهة قال لي:

" مريم، أريد الاطمئنان عليك، لا أدري ما الذي سيحصل بعد هذه الحرب، لكنّي أفضّل لو تسافرون خارج الوطن حتى تنتهي هذه الأزمة، حاولت كثيرًا مع أمي ومع والديك لكنّهم مصرّون على البقاءِ هنا، فهم لا يعرفون أرضًا غير أرضهم وأنا أعذرهم، لكن أنتِ يا مريم اسمعي نصيحتي وسافري ".

- لوحدي؟! لا أصدّق أنك مَن يقول هذا!

- لم أقل لوحدك، ستتزوجين.

- ماذا؟!

– لديّ صديقٌ قديم محترم ومثقف اسمه سعيد يعمل خارجًا، طلب منّي أن أجد له عروسًا مناسبة

ولم أجد أفضل منك يا عزيزتي.

– لكنّي لا أريد أن أتزوّج ليس الآن، ولا أعرفه!

– أنا أعرفه وأضمنه، وكل ما أريده هو أن أطمئنّ عليكِ مع رجلٍ يحميكِ ويرعاكِ.

بعد أن تزوّجت بسعيد كنت أحلم بوليد دائمًا، أرى نفسي في ذلك الحلم أنا ووليد واقفين وسط مجموعةٍ من النّاس، ثمّ يُشير لي بإصبعه إلى بيتٍ بعيدٍ وأنا كالمسحورةِ أتجه إلى حيث أشار لي، أدخل البيت فأتفاجأ أن الباب يغلق عليّ وأنه بلا نوافذ وبلا بابٍ للخروج، وأنني حبيسة جدرانه! ودائمًا كنت أبكي وأصرخ وألومه في الحلم.

بعد أيامٍ من عودته قال لي وليد:

– كم أناً فرحٌ لرؤيتك ، وحزين عليكِ في الوقت نفسه.

قلت له:

– لا عليك كلّ شيءٍ في هذه الدّنيا قسمة ونصيب، هذا قدري.

نظر إليّ بحنانٍ ثم قال:

– أمل الصّغيرة تشبهك كثيرًا عندما كنتِ صغيرة، كأنها دمية ليباركها الله.

منذ عودة وليد تغيّرت حياتنا للأفضل شعرت بالسّند والدّفء والحماية والرّعاية، غمر البيت بالفرح والسّعادة.

.....

عاد وليد إلى مزاولة عملهِ كطبيبٍ في مستوصفِ القرية بعد أن رفضَ الذّهاب للعملِ في مشفى المدينة الكبير؛ ليبقى قريبًا منّا، في

المساء عادَ وليد إلى المنزل وأحضر معه لعبةً جديدة، أدوات مطبخ وعروسة جميلة لأمل التي قفزت فرحةً بها، وأصرّت أن تحضّر له البيتزا من مطبخها الجديد وأطعمتها له بيديها، ثم جاءت ابنة الجيران ميرا التي استقبلتها أمل وعرضت عليها الألعاب الجديدة بحماس ودخلتا إلى الغرفة لتكملا لَعبهما.

ذهبت خالتي لتصلّي وقلت لوليد:

- سأذهب لأجهز العشاء.

- قال لي: سأساعدك.

أوكلت له مهمّة تقطيع الخيار والبندورة، بينما جهزت أنا الزيتون والمربى والزيت والزعتر واللبنة والجبنة، وأصرّ أن يقلي هو البيض بنفسه لأنه خبيرٌ به وله طريقته الاحترافية على حدّ قوله.

وضعت الشاي على النّار وكنت أنتظر غليانه، نظر إليّ وليد وقال لي:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم بخير.

قاطع حديثنا اتصال آلاء...

- مريم لديّ خبرٌ جميل... أشعر أني أطير من الفرحة...

- ماذا هناك يا آلاء شوّقتني؟!

- بالأمس رنّ هاتفي كان الرقم غريبًا، أجبت ألو، لكنه كان صامتًا! لم أسمع شيئًا سوى لهيب أنفاسه وزفرات عِشقه ينفخان النّار في صدري فأغلي كالمِرجل، ثم قال: " أنسيتني بهذه السّهولة؟ " لقد كان هو سامح، قفز قلبي فرحًا، غَفرت له كلّ ما فعله وبكيت شوقًا له... لقد عادَ واعتذرَ منّي على ما فعله وبكى نادمًا متأثرًا..

- حبيبتي يا آلاء أنا سعيدةٌ جدًا لأجلك، وغدًا سنحتفل بهذه المناسبة السّعيدة.

أغلقت الخط... وقد تذكّرت أنني تركت الشاي يغلي على النّار، ولكني وجدت وليد واقفًا عند الموقد... اطمئني لقد أطفأته باللّحظة الأخيرة.

***

الزواج التعيس

وضعت إبريق الشاي والفناجين على طاولة الطعام ، كان وليد يراقبني بصمت ،جلست على الكرسي المقابل له ،وعقدت ذراعي ونظرت إليه ،وانتظرت أن يفصح عما بداخله .

قال لي وليد:

- مريم، تعلمين أنني أخوكِ

وسرّك، ماذا حصل يا صغيرتي، أريد أن أعلم منك ماجرى مع سعيد .

- لم أفهمه طالما تساءلت لماذا يَجد لذّةً في تعاستي وتحطيمي؟! لماذا يستحسن هذه اللذّة بدل من اللذّة النّابعة من الحبّ وحُسن العشرة؟! والاستمتاع بأنه زوجٌ محبوب وزوجته سعيدة ومطمئنة بجواره!

أنت تعلم أن والدي كان رافضًا لسعيد، لأنه ما يزال يكوّن نفسه وكان يريد لي زيجةً أفضل، لكنّي أصرّيت وعاندته ثم رَضخ في النّهاية.

سافرت إليه... عندما كان يحادثني في الهاتف كان ودودًا طيبًا ربما مغرورًا ومتبجحًا بعض الشيء لكنّني أحببته، عندما قدمت إلى المطار كنت أحلم بلقاءٍ مثل الذي أراه بالأفلام... باقة ورد،

عناق، كلمة لطيفة، فرحة... كنت ذاهبة وأنا مشتاقة لحياتي الجديدة... بيتي، زوجي...

وصلت إلى المطار وبعد أن استلمت حقيبتي بحثت عنه ثم سمعت صوتًا يناديني... " هيي أنتِ... أنا هنا " كان واقفًا ولم يتحرّك أشار لي لأحضرَ إليه، اقتربت منه وأنا سعيدة، لم ينظر حتى بعينيّ

مشى أمامي مسرعًا ومشيت خلفه وأنا أجرّ حقيبتي، ركبت السّيارة ولم يهمس بكلمة! ربما كانت تلك أكبر صدماتي لأنه قتل فرحتي تمامًا، كنت مصدومة وصامتة.

نظر إلى عيني أخيرًا عندما رأى أن الدّمعة تكاد تطفر من عيني وأنه قتل فرحتي الأولى ثم قال لي بابتسامةٍ متصنعة: " ***الحمد لله عالسلامة*** ".

قلت ببرود: الله يسلمك.

حضرت إلى شقّته التي كانت متواضعة، أحضر لي كأس ماءٍ بارد، جلست بجواره راحَ يردّ على الهاتف وذهبت لاغتسلَ وأبدّل ثيابي، جلس بجانبي وأحضر كاسين عصير...

- إنهم أقاربي يهنئوني وينقلون لكِ مباركتهم، هل تعلمين أنّ عمّتي التي اتّصلت قبل قليل

كانت تريدني لابنتها، ملكة جمال، وخالتي أيضًا لديها ثلاث بنات قالت لي: " ***إختر من بينهن من تعجبك*** "

وجارتنا تقول لأختي إنني استعجلت...

كان مغرورًا متبجحًا، يشبه الطّبل الأجوف، يستكثرني عليه، هكذا يحاول أن يفهمني، ربما لنقصٍ في داخله يستعيض عنه بإيذائي، الذي أصبح يزيد يومًا بعد يوم، لم أعد أشعر بالأمان في البيت، وكان دائمًا يهدّدني أنه إذا لم يعجبني الوضع فلأذهب إلى بيت أهلي بدون ابنتي، لأنه يعلم أنه لا سند لي.

كنت أشعر أنّي ضعيفة بلا وطن، بلا أهل، بلا سند، وكان يرى أن عليّ أن أدفعَ ثمنَ ضعفي لأن العالم خلق للأقوياء، أتمنّى لو أنسى ما قاسيته وعشته معه يا وليد.

- لا بأس عليك يا صغيرتي، أريدك فقط أن تنسي كلّ ما مررتِ به، نحن هنا عائلتك التي تحبك

ودَعي الأمر لله ثم لي سأعرف كيف أتصرّف معه، لقد أخبرتني والدتي أنه قد عاد إلى البلاد

ويضايقك بين الحينِ والآخر، اطمئني يا مريم فأنتِ لستِ وحدك بعد الآن، ولن يستطيع أحد أن يؤذيك أو يقترب منك ما دمتُ حيًّا.

أبكاني كلامه، كان بكلماته حنيّة الأب التي افتقدتها، كان وليد أبًا صغيرًا منذ أن توفى والده وتحمّل هو مسؤولية رعاية أخيه اليتيم؛ لذا لم يكن يومًا طفلًا أبدًا، ولم يشتكِ أو يَضعف... كنت أشعر في قربهِ بالأمان والحماية.

- عديني يا مريم أنك لن تبكي بعد الآن.
- أحاول.

- أظن أنّ الأمرَ له علاقة بالجينات أنتِ وأمّي؛ ما أسرع دمعتكنّ ليكن الله بعوني وأنا وسط كلّ هذه الرقّة والحنيّة، سأذهب الآن إلى البيت فقد أدركنا الوقت بدون أن أشعر.

- ما زلت أظنّ يا وليد أنكَ أنت الأحقّ بأن تبقَ مع أمك، وأجد لي سكنًا آخر.

- لا تقولي هذا الكلام ثانية؛ إنّه بيتك وأمّي هي أمّك.

صمتَ هنيهةً ثمّ ما لبث أن أردف:

- أنا الرّجل وأستطيع تدبّر أمري.

- حسنًا إذا كان هذا يُسعدك.

- ما أجملكِ وأنتِ تمثّلين دور المطيعة يا أيّتها المتمرّدة!

***

المواجهة

عندما ذهب وليد لمقابلة سعيد، فتحَ سعيد ذراعيه عندما رآه مقبلًا عليه، لكن وليد نظرَ إليه نظرة غضب...

- أعلم يا وليد أنك تظنّ أنّي خيّبت ظنّك، ولم أكن على قدرِ المسؤولية، لكن يا أخي ورفيق دربي أسمع منّي ثم احكم عليّ، ولا تدع النّساء يفرقنَ بيننا، أنا أحبّك وأحترمك وأضعك فوق رأسي، وفرحت عندما سمعت بعودتك، لعلّك تقنع أختك للعودةِ إليّ من أجل الطّفلة على الأقلّ.

- أسمع يا سعيد لقد حمّلتك أمانة، سلّمتك قطعةً من قلبي مريم... ووعدتني أن تحافظَ عليها وتَصونها...وكنت أظنّ أنكَ رجل وستفي على وَعدك، فإذ بي أسمع أنّك تؤذيها وتُهينها وتقلّل منها، ولم تعمل لي حسابًا حتى!

- اسمعني يا وليد قبل أن تظلمني.

- لا تكمل... قاطعه وليد...

مريم تربيتي أنا، وأنا أعلم أنني أعطيتك جوهرة تستحقّ أن تحافظَ عليها وأن تُحسن عشرتها، لكنّك لا تستحقها؛ لن تجد في الدّنيا امرأةً بأخلاق وتربية وحنان وحبّ مريم؛ تصون بيتك وتحافظ عليك مثلما فعلت.

صمت وليد وأغلق عينيه برهةً ثم أردف...

- عمومًا ما فات فات، ومريم لن تعودَ لك أبدًا، ولو سمعت أنك تعرّضت لها أو حدّثتها أو ضايقتها ستندم، مريم ليست وحيدة ولا ضعيفة، وأنا لن يردعني أحدٌ أيًّا كان عن قتلِ أيّ مخلوقٍ يحاول أذيّتها، هذه رسالتي لك عسى أن تفهمها جيدًا، فقد أعذر من أنذر.

.....

غطّى وليد أمل ببطانيتها، وراحَ يمسح على شعرها ويقرأ عليها المعوذتين حتى غفت.

أغلقَ وليد باب الغرفة بهدوءٍ وقال لي:

- لقد خلدت إلى النوم ، وتستطيعين أن تتفرّغين لكتابتك دون إزعاج.

- أنت حنون جدًا يا وليد وشجاع... شجاعٌ جدًا، أظن أنك كنت محاربًا في زمنٍ آخر.

- أتصدّقين... أظنّ أنّني كنت قائدًا عسكريًا في زمنٍ آخر.

أجبته:

- وأنا أظنّ أنّني كنت طائرًا في زمنٍ آخر.

نظر إليّ وليد مبتسمًا...

- عصفورة قلبي.

ثم خرجت منه تنهيدة...

- ما بكَ يا وليد؟ بمَ تفكر؟
- أريد أن أستقرّ يا مريم.
- هل فكرت بالزواج؟
- سنبحث لك من الغد أنا وخالتي عن عروس.
- لكنّي لا أريد أن تبحثان عنها، إنّها موجودة.

نظرَ في عينيّ نظرةً أخجلتني وأربكتني ثم قال:

- لقد تأخر الوقت سأودّع أمّي وأذهب، تصبحين على خير يا صغيرتي.

ذهبت لأنامَ في سريري وأنا أفكّر بوليد، وليد لم أفكّر به يومًا إلّا كأخي، أحبّه حبًا كبيرًا، لكن مشاعري نحوه مختلفة، لكنّي على الأقلّ أعرفه جيدًا وأعرف أنه لن يغدرَ بي مثل غيره.

عاودتني تلك الضّائقة النفسيّة، فاستسلمت لها دون أدنى مقاومةٍ منّي، شعرت بحريقٍ صامتٍ يُلهب حنجرتي؛ كلمات لم تخرج من جوفي، ومشاعر استحالت نارًا تَخنقني... نزلت دمعةٌ ساخنةٌ على خدّي وتلتها أخرى حتى تبلّلت وسادتي.

.....

اقترحت عليّ آلاء أن نذهبَ في نزهةٍ بعد العصر.

أحضرت معي بعض المعجنات وكيك البرتقال وعصيرًا طازجًا من صنع خالتي، ثم جلسنا نستمتع تحت ظلال الأشجار وبين

أحضان الطّبيعة، وراحت أمل تدحرج الكرة وتركض خلفها وتتقافز فرحة، وتقطف الأزهار وتنثرها.

نظرت إلى وجه آلاء الصّامتة فإذا بها منطفئة وحزينة...

- خير يا آلاء ما بك؟ أخبريني.

نظرت إليّ بعينٍ تغالب دموعها...

- سامح؛ أظنّ أنّه يخونني ويعيش علاقة حبٍ جديدة.

صمتت للحظةٍ بينما كنت أحاول أن أزدرد صدمتي...

- هل تصدّقين يا مريم أصبحت أتصرّف كالمهووسين! تقتلني غيرتي عليه، أتجسّس على مكالماته أراقب حركاته وسكناته، أتلصّص على حساباته على الفيس بوك، أتشاجر مع البنات اللاتي يعلّقن عنده.

سكتت للمرّة الثانية، وبدت لي شاردةً في الأفق البعيد، كمن يحاول أن يستجمعَ أشلاء أطياف تتشكّل خلف ركام.

- البارحة تشاجرت مع ابنةِ جارنا التي تبلغ من العمر ١٧ عامًا؛ تخيّلي وصل بي الشكّ إلى هذا الحد لأنني رأيتها تضحك مع سامح عند مدخل العمارة، لقد تعبت معه وفقدت صوابي... أصبح الكلّ لديّ مَوضع شك، حتى الفتاة الصّغيرة ابنة الجيران وَعظتني وقالت لي:

- وهل ستتشاجرين مع كلّ أنثى يُحادثها... ألا تظنّين أن الخَلل ليس بهن؟!

تعبت يا مريم من القلق والوساوس، ولا أريد أن أدخل والدي بالموضوع، لأنني أعلم أن أبي لا يحبّه، ولم يكن راضيًا عنه منذ البداية.

- ولا أنا يا لولو، لا أعلم لماذا تصبرينَ على كلّ أفعاله!

- إنّه الحبّ يا مريم، يُضعفك، ليتك تجرّبينه لتعذريني.

- إذا كان سيفعل بي هذا فلا أريده.

- هل تريدين أن تقنعيني أنك لن تتزوّجي أبدًا!

- بالتأكيد؛ لقد جرّبت حظّي مرةً ولن أكرّرها، ثم إني يستحيل أن أتركَ خالتي.

نظرت إليّ بخبث...

- ومن قال إنك ستتركينها؟

- أعلم أنك تلمّحين إليه يا آلاء؛ وليد أخي، ولا يصحّ أن أفكّر به بغير ذلك، هل يجوز أن تتزوّج الأخت أخاها؟! والآن دَعك من موضوع زواجي ولنَعد إلى موضوعك، سأطلب من وليد أن يحادثَ سامح ويعقّله لعلّ وعسى.

- أشكرك من كلّ قلبي يا مريومتي.

.....

عُدت من عند آلاء وكان وليد وخالتي يتحادثان...

قال لي وليد:

- أهلًا مريومة؛ أحقًا ستسافرين إلى الإسكندرية؟

أجبته:

- نعم... لقد اتفقت مع المخرج والشّركة التي ستنتج الفيلم، بالإضافة إلى أنّ لديّ فضولٌ غريب لزيارةِ تلك المدينة، وستتزامن زيارتي مع افتتاح معرِض الكتاب الدوليّ في الإسكندرية، وهذه فرصةٌ للتّرويج للرّواية.

- بالتّوفيق يا مريم لقد قرأت رواياتك... تمتلكين موهبةً عالية؛ لطالما كنت مؤمنًا بك.

قالت لي خالتي:

- تعالي يا مريم إنني أقنعه لكي يتزوّج وهو رافضٌ الموضوع نهائيًا، لا يريدني أن أفرحَ به!

اقتربت منه وقلت له:

- لماذا يا وليد؟! أي بنت في الدّنيا تتمنّى إشارةً منك.

قال لي:

- أتكذبين عليّ يا مريم؟ أيّ بنت تتمناني! من ستَقبل بي ب علّتي هذه؟

وكشفَ عن قدمهِ المبتورة ثمّ أردف...

- ... بقدمي!

لم تستطع خالتي أن تحبسَ دموعها وكأنّها كبتت مشاعرها منذ لحظة عودته، ولم تستطع أن تخبّئها أكثر.

- لا تقل هذا يا وليد... إنه القضاء والقدر، المهمّ أنك قد عدت لنا سالمًا.

- الحمد لله على كلّ حال.

صدّقيني عندما أُصبت وحصلَ ما حصل... كنت أدعو أن أبقى على قيدِ الحياة فقط لأعود لكما... ولكن بعد أن بُترت قدمي ووَقعت في الأسر أيضًا، وتحمّلت من العذاب ما لا قدرة لبشريّ على تحمّله، ولكنني تحمّلت وصبرت، والحمد لله أنا راضٍ بقضاءِ الله.

***

ذاكرة الجسد

قال وليد:

ليس هناك أسوأ من الحرب يخيّل إليك وكأنّها ستبقى مشتعلة ولن تنطفئ أبدًا!

كانت السّماء قد امتلأت بالسُّحب السّوداء، والرّيح تعصف عصفًا، والمطر يتساقط بغزارة، والطّرقات موحلة والضّباب يَحجب الرّؤية... وكنت مع رجالِ الفرقة الطبّية من أطباء وممرضين ومُسعفين في المركز الطبيّ الذي أُنشئ على عجلٍ في إحدى النّقاط المتاخمة للعدو، وكان صوت زئير القذائف يقترب وتدوي انفجاراتها من حولنا...

فجأةً اهتزّت جدران المركز الطبيّ ودوى صوت انفجارٍ قويّ هزّ الأرض، ثم رأيت وميضًا خاطفًا تبعته انفجارات متتالية وأزيز الشّظايا يتناثر من حولنا.

كانت نيران الانفجارات تُنير ظلمة المكان الذي شقّ صمته أصوات دويّ القنابل والمدافع، لم أكن أقوى على الحِراك، جِلت ببصري بالمكان، الجميع من حولي سقطوا بين جريحٍ وقتيل، حاولت أن أتحسّس جسدي وأن أرفعَ رأسي وأحاول الجلوس، لكني شعرت بدوارٍ في رأسي وبسائلٍ دافئٍ ينزف من ساقي، كان الألم شديدًا مددت يدي نحو ساقي فوجدت قدمي قد تهشّمت بفعل الشّظايا، حاولت أن أهدِّئ من رَوعي ودَعوت الله أن يتلطّف بي...

كنت أنزف، وكان ألم قدمي ينتقل إلى جسدي كلّه، ليس هناك أسوأ من شعور أن تكون متألّمًا عاجزًا حتى عن إنقاذِ نفسك، حَضر المسعفون ونقلوني بالحمّالة إلى مركزِ إسعافٍ آخر، وكانت الأرض تهتزّ من تحتنا، سمعت أحدهم يقول لي اطمئن يا دكتور، إصابتك ليست بليغةً سنصل إلى المركز الطبّي سريعًا.

وصلنا المركز، كان هناك المئات من المصابين، والمسعفون يعملون بجدٍ لنقلهم إلى المركز، وكان الأطباء غارقين في الدّماء يحاولون أن ينقذوا مَن يمكن إنقاذه.

كنت أحاول الاحتفاظ بهدوئي ورباطة جأشي وأنا أكاد أن أفقدَ وعيي من شدّة الألم، بينما المبضع يغوصُ في لحمي والعَرق يتصبّب من جسدي، ثم ما لبثتُ أن غبت عن الوعي بعد أن نزفتُ كثيرًا.

حينما استيقظت أخبرني الطّبيب أنني بخير ولكنّهم اضطرّوا لبترِ قدمي، لاستحالةِ إنقاذها بعد أن امتلأت بالشّظايا الملوّثة التي امتزجت بلحمي.

كانت المعارك تشتدّ، وطُوقت المناطق من حولنا وأُحرقت بالكامل، ثم حُوصر المركز الطبيّ وقُبض على كلّ الموجودين فيه، ومن ضمنهم أنا... اعتقلت، ثم أُفرج عنّا، أنا ومعظم أعضاء الطّاقم الطبيّ.

قبّلت رأسه وقلت له:

- قدمك هذه سبقتك إلى الجنّة بإذن الله، لن يضيعَ الله صبركَ وعذابك وألمك.

.....

ضمّته خالتي وقبّلته، وراح يمسح دموعها بيده...

- امسحي دموعك يا حبيبتي... لن أسامحَ نفسي لأنني كنت السّبب في أن تبكي!

حاولت أن أغيّر الموضوع... قلت لوليد:

- أرجوك يا وليد هلاّ تحدّثت مع سامح خطيب آلاء أنت تعرفه، إنّه جارنا وصديق لك، أعرف ذلك؛ حاول أن تتحدّث معه لعلّه يعقل ويعود إلى رشده.

- سأفعل يا مريم... من أجلك ومن أجلها، إنه يصلّي الجمعة مع والده في المسجد؛ سأحادثه غدًا بعد الصّلاة؛ إن شاء الله.

.....

سامح... سامح الرّجل الغامض بسلامته؛ الشاب المتواضع الهادئ، يمكن أن تُصادفه في الشّارع ولا يلفت نظرك، مظهره البسيط يوحي لك بشيءٍ من الرّاحة؛ تظنّه شابًا واثقًا من نفسه لذا لا يحبّ التبجح والتّلميع والأضواء والمَدح، ثم تكتشف بعد ذلك أنّه لا يحبّ الحديث كثيرًا، ليس لأنّه عميقٌ وحكيم كما يحبّ أن يوحي للبعض، بل لأنه يخاف أن يتكلّم فتنكشف أكاذيبه... أستاذٌ في فنّ التّلاعب والحيل وممارسة الألاعيب النفسيّة.

الحبّ بالنّسبة له مصلحة وباب للاستفادة، وتنتهي علاقته مع الفتاة بمجرّد أن يشعر أنّها لن تستطيعَ أن تُعطيه أكثر أو لن يستفيدَ منها أكثر مما استفاد!

- يا للنساء وحبّهن للدراما والنّكد وافتعال المشكلات!

هكذا أجاب سامح وليد... عندما نصحه أن يَرفقَ بخطيبته ويعقل.

- أنت رجلٌ يا وليد وتفهم ما أعنيه؛ تعدّد علاقاتي هي ما أبقت علاقتنا ناجحة وسعيدة وممتدّة، وأبقت على أساسات حياتنا متماسكة وثابتة، أنا أعتبر أن الخيانة الوحيدة هي خيانة القلب والرّوح، وأنا لا أحبّ أحدًا سوى آلاء؛ لذلك لم أخنها أبدًا، افهمني يا وليد لأنّي أحبّ آلاء أُرافق أخريات، ما يدفعني بعلاقاتي هو رغبتي في تجديدِ المشاعر ما بيننا، ما إن أكون على علاقةٍ مع امرأةٍ أخرى حتى أعود لخطيبتي بشغفٍ ورغبة لأعيدَ شرارة الحبّ بيننا.

سكت لهنيهة ثم أردفَ بثقة:

- الأمر ممتعٌ أن أعودَ إليها بكلّ هذا الشّغف والشّوق والإحساس بالذّنب، وكأنك قفزت من جهةٍ الى أخرى، وطرت في الهواء فيتدفّق في قلبك الأدرينالين، الأمر أشبه بمغامرةٍ ممتعة تخوضها وتعود إلى عشك مسرورًا هانئًا.

***

حكاية ماقبل النوم

حملت الطّفلة إلى فراشها، ووضعتها فيه، قالت لي:

- ماما هل ستغيبينَ كثيرًا؟

- أعدكِ يا حبيبتي أنني سأعود إليك سريعًا، وسأُحضر لك الهدايا والألعاب الجميلة، والآن هيا إلى النّوم أغمضي عينيك، حان موعد الحكاية يا حلوتي...

كان يا ما كان في قديم الزّمان، كانت تعيش في وسطِ البحار العَميقة حوريات بحر جميلات يعرفن بـ (السيرينات) يمتلكنَ أصواتًا عذبةً وجميلة، كُن يسحرنَ كلّ مَن يسمع غناءَهنّ بصوتهنّ الرّخيم، بينما كان ضوء القمر يتكسر على الماء، والبحارة مشغولون بالحديث عن رحلتهم القادمة، خرجت السيرينات من أعماقِ البحر ورحنَ يغنينَ للبحارة، رأى البحارة صورتهنّ وسمعنَ غنائهنّ، فسحرتهم أصوات السيرينات العذبة، تركوا السّفينة وألقوا بأنفسهم وسط المياه، واختفوا للأبد.

لم يستطع أحد يومًا أن يقاومَ صوت غواية السيرينات، حتى جاء أحد الأبطال ويدعى (أوديسيوس) وقرّر أن يحتالَ عليهنّ،أمر بحارته أن يسدوا آذانهم بالشمع ، أما هو فلم يسد أذنيه ، ولكنه أوصى رفاقه بربطه إلى سارية السفينة حتى يستمع إلى أصواتهن ولا يستجيب لهن ،وبذلك نجى هو والبحارة بفضل حيلته وذكائه.

غفت الطّفلة بين ذراعي، قبّلت جبينها وغطّيتها، ورحت أفكّر بأحلامي التي تشبه أغاني السيرينات، وهي تشدّني رغمًا عنّي لأتبعها وألقي بنفسي وسط المجهول، يا ترى أيّ حيلةٍ سأتبعها حتى لا يسحبني ذلك النّداء وأختفي في أعماقه إلى الأبد.

***

الفصل الثاني
" منتصف الليل في الإسكندرية "

لم أصدّق نفسي أنا الآن واقفة في المطار؛ كنت متحمسةً وحزينة في الوقتِ نفسه؛ هذه أوّل مرّة أفارق فيها أمل منذ أن أنجبتها؛ خالتي نصحتني أنّه من الأفضل للطّفلة أن تبقى معها، وألا تتغيّب عن مدرستها، كما أنّ مرافقتها لي ستعوق من تحرّكاتي وتقيّد حريّتي، كما أنني لن أغيبَ طويلًا.

وصلت إلى الإسكندرية، حيث استقبلني الأستاذ مجدي؛ كان رجلًا لطيفًا مرحًا، في العقد الخامسِ من عمره، يرتدي بدلةً فضيّةً أنيقة، قال لي: " أنت من هذه اللّحظة في ضيافتي، لقد أخبرتني أنك متحمّسة لزيارةِ معالم وآثار الإسكندرية؛ لذا سآخذك بجولةٍ في أنحاء المدينة ".

سحرتني تلك المدينة الواقعة على ساحلِ البحر الأبيض المتوسط.

اتصلت بخالتي أم وليد، طمأنتها على وصولي وحادثت أمل لأطمئنّ عليها، ثم ذهبت - برفقة الأستاذ مجدي - لمقابلة المخرج وتوقيع العقد.

اجتمعنا مع شركة إنتاجِ الفيلم، تناقشنا حول الرّواية، وأوضحت للمخرج رؤيتي عن كلّ بطلٍ من أبطال الرّواية كما تخيّلته.

تناولنا الغداء في المطعم الشّهير المطلّة نوافذه مباشرةً على المساحة الزّرقاء لمياهِ البحر، لا يفصلها عن أمواجِ الشّاطئ سوى شريطٍ رمليّ صغير، تتناثر عليه نتوءات صخريّة بنيّة اللّون يكسو حوافها اللّون الأخضر المميّز لفطريات البحر وكائناته الدّقيقة؛ طلبَ منّي الأستاذ أن أتذوّق الحمام المحشيّ الذي يُتقن طباخو هذا المطعم حشوهُ وطهوه، وأيضًا حفّزني لتذوّق شوربة الملوخية المطشوشة التي لها من السّمعة العالميّة ما لها، فالبيت المصريّ يعد من أجودِ البيوت إتقانًا لطهوها، إذ يقطعونها جيدًا إلى أن تصيرَ ورقاتها الخضراء مزيجٌ من عجينٍ وسائلٍ لزج، ثم تضاف إلى قدرٍ به ماء مغلي، وتترك على النّار فترةً زمنية، ثم يضيفون لها مهروسًا من حبّات الثّوم ممزوجًا بحبّات الملح الأبيض وقطرات من الزّيت، وهذه الإضافة تحدث عند إضافتها طشطشة؛ لذا نعتوها بالملوخيّة المطشوشة، وما أدهشني هو ما تمّ أمام عيني، ذلك الطش الذي أجراه الطّاهي على مرأى ومسمعٍ مني... وكانت تجربةً شهيةً لا تُنسى.

قال لي مجدي:

- أرى أنك سعيدة جدًا ومتحمّسة لاكتشاف الإسكندرية وزيارة كلّ معالمها.

أجبته: كثيرًا، أريد أن أزورها كلّها قبل سفري، كما أنّه لديّ مغامرة هنا يجب أن أخوضها.

نظر في عيني مندهشًا...!

- مغامرة؟!

- نعم مغامرة؛ زيارة فندق أحلامي "ميرامار".

حدّثته عن أحلامي المتكرّرة بالفندق الذي لم أرَه في الواقع يومًا، فأبدى الأستاذ حماسه وإعجابه بالموضوع...

- هيا بنا لنذهب الآن.

- هيا بنا، ولكنّي أريد أن أركبَ الحنطور، وأتجوّل في محطّة الرّمل.

- لك ذلك يا سيدتي.

كانت عيناي مأخوذة بكلّ ما شاهدته ورأيته على جانبي الطّريق من محطّة الرّمل إلى بنسيون فؤاد، فجأةً أحسست بشعورٍ غريبٍ يغمرني... فقلت للسائق: توقف!

وسط ذهول السّيد مجدي نزلت وأنا أمشي وكأن مغناطيسًا يجذبني لأقفَ أمام ما بدا أنّه أنقاض محل... أشرت بإصبعي تجاه المكان وقلت أريد أن أشتريَ مثلجات!

نزل السيد مجدي مصدومًا وقال لي:

- لكن هذه خرابة ما بك يا مريم؟

قال السّائق مستغربًا:

- أنا يا بيه ابن المنطقة وحافظها شبرًا شبرا، الغريب أنه فعلًا كان هنا محل لبيعِ المثلجات، لكنّه أُغلق منذ بداية السّبعينات على ما أذكر!

تابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى البنسيون الذي وقفت أمامه مدهوشةً، كان موقعه مميزًا على كورنيش الإسكندرية بجوارِ مطعم ومقهى أثينيوس، كان الفندق تحفةً معماريةً أثريّة تتحدّى الزّمن.

وقفنا أمام مدخلِ العمارة ونحن نتأمّل البوابة الشّاهقة التي تحفّها الزّخارف والأعمدة اليونانيّة، وهنا تذكّرت كلمات نجيب محفوظ...

" العمارة الضّخمة الشاهقة تطالعك كوجهٍ قديمٍ يستقرّ في ذاكرتك، فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شيء في لا مبالاةٍ فلا يعرفك ".

كيف علمَ نجيب هذا؟! هل حصل له ما حصل معي؟! أنظر إلى هذا المكان وكأنّي أعرفه من قبل...

يالسحر هذا المكان وروعته! كأنه بوابةٌ زمنيّة تُعيدك إلى الماضي.

بني الفندق سنة ١٩٢٨ على يد المعماري (لوريا) ،ليصبح أحد معالم الإسكندرية المميزة .

لايزال المصعد الضخم يحتفظ بنفس هيئته ، بلونه الاسود الداكن وبابه الحديدي المزخرف ،صعدنا الى الدور الثاني لنجد بنسيون فؤاد أو ميرامار .

ليت جدران الفندق قادرة على الكلام ،ليتها تبوح لنا بأسراره وتروي لنا القصص عن الناس والأزمان والأحداث التي عاصرها الفندق .

- تفضّلي سيدتي.

قال الموظف المسؤول

بعد أن أتممنا جولتنا في غرفِ البنسيون؛ قال لي السّيد مجدي:

- هيا بنا يا مريم يجب أن أعيدكِ إلى الفندق.

أجبته:

- اذهب أنت يا أستاذ، أنا سأبيت اللّيلة هنا.

- هنا؟

- نعم وغدًا سأذهب إلى الفندق لأحضرَ ملابسي، لا أستطيع أن أغادرَ هذا المكان؛ أشعر بالأنس وكأنني أسكن هنا منذ زمن! ثمّة سحرٌ فيه يمنعني من مغادرته.

ودّعني مجدي وذهب، خلعتُ جاكيتي وبنطالي الأسود، وأبقيت قميصي الأبيض الحريريّ على جسدي، أخذت حمامًا دافئًا ونِمت بعُمق!

***

اللّيلة الأولى

ما إن دقّت السّاعة تُعلن للّيل انتصافه؛ فوجئت بصوتٍ عذبٍ لامرأةٍ يوقظني...

- هيا استيقظي سنتأخر عن الحفلة.

فتحت عينيّ دقّقت في ملامحِ المرأة، وقلت مستغربةً الذي أراه:

- أأنت شادية؟!

- بلى أنا شادية، لماذا أنت مستغربة؟! هيا ارتدي ملابسكِ بسرعة، سنتأخر عن الحفلة التي سيقيمها المخرج حسين كمال، كما أنّ أم كلثوم ستغنّي اللّيلة.

- أم كلثوم وشادية!! في أيّ سنةٍ أنا؟! هل أنا أحلم أم أنّ حُلمي وواقعي اندمجا معًا؟

ما سرّ هذا الفندق؟ هل هو بوابة زمنية؟!

استفقتُ من أسئلتي على صوت شادية...

- أظنّ أن لديّ فستانًا يناسبك، هيا سأساعدك في ارتدائه.

أحضرت لي فستانًا حريريًا باللّون الأسود، سرّحت لي شعري ووَضعت الأقراط في أذني مع عقدٍ جميلٍ من اللّؤلؤ على رقبتي.

ذهبنا إلى الحفلة وأنا مذهولةٌ بكلّ شيء...

وجدت نفسي في قاعةٍ فاخرة في قصرٍ كبير؛ كل شيءٍ فيه يبدو كأنه تحفةٌ فنيّة! القاعة كبيرةٌ ولامعة، الأرض من الرّخام الأبيض والسّقف مزينٌ بالنّقوش الفنيّة الدّقيقة والزّخارف.

الثريا تتدلّى من السّقف بكريستالاتها اللّامعة، كأنّها نجومٌ متلألئة تُنير القاعة، الأثاث فخمٌ ومذهّب، سيدات وسادة بملابس أنيقة، زخارف وتماثيل وألوان، وأثاثٌ ثمين وتحفٌ فاخرة، وأفخر أنواع السّجاد، وساعات محلّاة بالذّهب، كأنّي عُدت بالزّمن إلى الوراء؛ كأننا في إحدى صفحات التّاريخ أو الأفلامِ القديمة!

لم يكن حلمًا أو فيلمًا شاهدته، بل حدثًا حقيقيًا عِشته، كان كلّ السرّ في ذلك الفندق العجيب بوابة العودة بالزّمن إلى الماضي، ذلك الفندق الذي يُغلق نفسه على سرّه ويأبى الإفصاح عنه إلّا لمن يختارهم... وكنت من المحظوظات اللّاتي اختارهنّ لسببٍ أجهله.

الأضواء الخافتة، رهبة المكان، الموسيقى، يرفع أحدهم صوت الراديو وهو يقول ستغنّي أم كلثوم بعد قليل على المسرح، بدأ صوت الستّ يملأ المكان ويُصيب المُستمعين بالنّشوة

" رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا

علموني أندم على الماضي وجراحه

اللي شفته قبل ما تشوفك عينيا

عمري ضايع يحسبوه إزاي عليا "

كنت أنظر حولي مندهشة، بادرني رجلٌ يجلس بجواري ذو طلةٍ مهيبة؛ يرتدي نظارات طبيّة، وهو يستمع إلى الأغنية بانسجام...

- جميلة الأغنية؟
- طبعًا جميلة.
- إنّها من ألحاني.

نظرت إليه باندهاش! ثم قال لي:

- أعرّفك بنفسي؛ محمد عبد الوهاب.

ذُهلت وأصابني الخرس!

كان يتفرس في وجوه الحاضرين وهم يستمعون إلى الأغنية باستحسان، ثم قال:

- تعرفين يابنتي؛ الجمهور هو أستاذٌ كبيرٌ جدًا لأنّه هو الذي ينبّه المطرب أو المطربة إلى استحسانه أو استيائه فيُصلح من شأنه، ويبقي عقله مشغولًا متسائلًا " لمَ لَم يعجبه؟! " ***ساعات لما أسمع أنا أم كلثوم في حفلاتها التي يكون فيها ناس يسمعوها، وشيء غريب يحدث لي فأجد نفسي أسمع الناس؛ انبسط من الناس، لأني بشوفهم أو بحس بيهم قالوا آه من قلبهم أو عملوا حركة استحسان في مكان، أم كلثوم نفسها تبقى عايزة تقول لنفسها أوقفي من كتر ما هما قد كده حساسين وجاءوا من أجل أن يسمعوا ".***

سكت برهةً من الوقت؛ التقطَ فيها أنفاسه ثمّ استطرد...

- للأسف هذا الجمهور لم يعد موجودًا الآن.

ثم صمت لمرةٍ أخرى، وحكّ صلعته بأنامله، ثم نهضَ واستأذنني ومضى.

بدأت أشعر بدوار، كأني عُدت بالزّمن إلى الوراء، يا الله ماذا يحدث لي؟! أين أنا؟! تعثّرت قدمي وكدت أن أقع؛ أمسك أحدهم بيدي، وقال:

- انتبهي؛ هل أنتِ بخير؟ ارتاحي قليلًا.

اعتذرت منه فقال لي:

- تبدين تائهة.

أجبته:

- أجل لقد قابلت للتوّ رجلًا يشبه محمد عبد الوهاب.

ضحك وسألني:

- هل هذه أوّل مرةٍ تحضرينَ حفلة؟

قلت له:

- نعم؛ أنا من بلدٍ آخر وزمنٍ آخر.

قال الرجل:

- لا عليك استمتعي... دائمًا أقول إن الحياة رحلةٌ قصيرة، فلمَ نضيعها في البقاء في مكانٍ واحد؟!

صمت لحظة؛ تأمّلني كأنّه يبحث عن شيءٍ ما، أو ربما ملامحي ذكّرته بشخصٍ ما سبق أن التقى به، ثم ما لبثَ أن استطرد...

- اسمي إحسان عبد القدوس.

- أنا... مريم، إن اسمك يشبه اسم... الكاتب...

لم يترك لي مساحةً من الوقت لأكملَ حديثي...

- إذًا يبدو أن رواياتي تُعجبك.

- بالتّأكيد تعجبني.

- ما هو عملك يا مريم؟

- مدرّسة... وكاتبة أحيانًا؛ لقد انتهيت من كتابةِ روايةٍ لي منذ أيامٍ قليلة.

ردّ إحسان:

- أنصحك أن تتفرّغي للكتابة بشكلٍ كامل، لقد عملت محاميًا في بداية حياتي، ولكنّي تركت المحاماة وتفرّغت للكتابة.

ردّ أحدهم:

- الحمد لله أنك تركت المحاماة وإلا كنت أقعدتنا جميعًا في بيوتنا...

وتبادلا الضحكات

نظرت إلى المتحدّث، فوجدته شابًا وسيمًا بعينين سوداوين وشعرٍ أسود، حليق الذّقن يرتدي بدلةً أنيقة، وتفوح منه رائحة العطور.

اقترب منّي وقال:

- مساء الخير يا آنسة اسمي محمد؛ أعمل محاميًا.
- تشرّفنا؛ اسمي مريم.
- جميلٌ جدًا، سمعت أنكِ كاتبة، لا بدّ أنّني قد قرأت شيئًا من كتاباتك.
- لا أظن.
- لم أركِ هنا من قبل يا آنسة!
- نعم هذه هي المرّة الأولى التي أحضر فيها إلى هنا.
- ما رأيك أن آخذك إلى مقهى شهير يجتمع فيه أبرز الأدباء والكُتاب، وسأعرفك على شخصٍ سيساعدك بنصائحه كثيرًا، وسيرحب بمساعدتك.

قابلتني شادية قبل أن أخرج وقالت لي: أنتما مدعوان غدًا إلى حفلةٍ كبيرةٍ سنُقيمها وسيحضر أشهر الأدباء والشّعراء وسيغنّي عبد الحليم.

لمعت عينانا من الحماس؛ صِحنا أنا ومحمد في نفسِ اللّحظة...

- عبد الحليم! سنحضر بكلّ سرور.
- عظيم، سأرسل لكما السائق غدًا ننتظركما.

ودّعناها وخرجنا وأكملنا طريقنا إلى المقهى.

كان المقهى يحمل طابعًا مميزًا؛ الثريات النحاسيّة المتدلّية من سقفه، إلى جدرانه المعلّق عليها صور أهمّ الأدباء الذين زاروه.

كان الأستاذ جالسًا على كرسيّه يرتدي نظارةً سوداء، ويتحلّق حوله الأصدقاء، اقتربنا منه وقال محمد:

- أستاذ طه؛ أعرّفك بمريم، كاتبة وتتمنّى أن تتلمذَ على يديك.

شهقت؛ لم أصدّق عيني؛ أأنا أقف أمام طه حسين عميد الأدب العربيّ؟!

- أهلًا بك؛ اجلسي.

اسمعي يا ابنتي؛ من أحسّ القدرة على الكتابة أو القدرة على نَظم الشّعر، ثم جرّب نفسه فاستقامت له الكتابة، أو استقامَ له الشّعر؛ يجب أن يقرأ ما وَسعته القراءة في نثرِ القدماء وشِعرهم أولًا، ونثر المعاصرين وشِعرهم بعد ذلك، وكلّما استكثرَ من القراءة للآداب الأجنبية شعرًا ونثرًا كان هذا أكثر فائدةً له.

- يا بُنيّتي إن الشّهرة ليست من الأغراض التي يسعى إليها الشّاعر أو الكاتب، وإن الكاتب نفسه أو الشاعر ينبغي أن لا يظن أنه أصبح شاعرًا مجيدًا أو كاتبًا قديرًا، إنّما هذا يترك للذين يقرؤون إبداعاته السرديّة أو للذين يسمعون أشعاره.

- إقرائي كثيرًا... كم أتمنّى أن يقرأ الكاتب أكثر مما يكتب.

- أرى أنّكم مجتمعين هنا... قاطعنا صوت رجلٍ قادمٍ نحونا...

- تعالَ يا نجيب، تفضّل.

يا إلهي! هل فقدت عقلي؟ ما هذا الذي يحدث؟ طه حسين ومن قبله إحسان عبد القدوس، والآن... نجيب محفوظ!

اقتربَ منّي الأستاذ نجيب وسألني:

- كيف حالك يا مريم؟

زادت دهشتي وسألت نفسي كيف عرف اسمي؟

- هل تعلم بأن هناك سرًا غامضًا في الفندق٥؟

تفرّس بعينيهِ الحادّتين في حدقة عيني، ثم هَمهم بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمع:

- لا تتعلّقي بحياتك هنا حتى لا تعلقي بين عالمين، إياكِ أن تُبقي أبوابك مواربة، إمّا أن توصديها بإحكام، أو تتركيها مفتوحة؛ كوني في الدّنيا كمسافرةٍ أو عابرةِ سبيل؛ لا تتعلّقي بشيءٍ ولا بأحد، كوني خفيفةَ الحِمل والزاد.

سكت برهةً من الوقت ثم أردف...

- لكلٍ منّا مغامرته الخاصّة ورسالته، وأنتِ لك رسالتك في الحياة، وما أنا سوى مرشد لكِ

أتمنّى لك التّوفيق يا عزيزتي.

- أستاذ نجيب... كنت أريد أن أطلبَ منك أن تتوخى الحذر.

قاطعني بهدوءٍ وقد فَهم المغزى...

- لا تُكملي يا مريم... لا ينجي حذرٌ من قدر، وكفى بالله حافظًا.

ثم نهضَ وأكملَ سَيره إلى خارج المقهى بعد أن ودّع أصدقائه.

أصرّ محمد أن يوصلني إلى الفندق... ونحن نمشي في الطّريق سألني:

- حدّثيني عنكِ أكثر يا مريم، أأنت مخطوبة؟

- لا يوجد شيء في حياتي أحدّثك عنه.

ثم ساد الصمت بيننا

فهم محمد أنني أحيط قلبي بالأسوار، لَم يدرِ لِم، ولكنّه من واقع تجاربه وخبراته؛ حدس أني بلا شكّ تعرّضت لمأساةٍ حياتيّة، بل ربما عائلية؛ لذا تفهّم حرصي وقلقي بسبب ما مررت به وتكتّمي عليه، لا لشيءٍ إلا لأنه ربما مرّ به أيضًا، ويعلم كيف يمرّ النّاجون بتجربةٍ عنيفة وكيف تستنزف منهم ومن أرواحهم الكثير.

سألته...

- هل أنت خاطب؟

أجاب:

- كنت...

أطرقَ رأسه لثوانٍ، ثم رفعها متمعنًا في عيني.

- أشعر أن سرًا عجيبًا بين أضلعك لا أدري ما هو!

- أنا من زمنٍ آخر يا محمد... لا بدّ أنك تظنّ أنني مجنونة.

- أبدًا أنا أصدّقك تمامًا. نظر في عينيّ بحبٍ وقال:

- هل تظنّين أنكِ وحدكِ من تحلمينَ بأشخاصٍ ثم تقابلينهم في الواقع؟ هل تظنّين لقائي بك صدفة؟ لا يوجد صدفٌ يا مريم؛ إنّما هي أحداثٌ مكتوبة ومن ترتيبِ القدر؛

شعرت بروحك تناديني منذ أن رأيتك، أعلم أننا تقابلنا اللّيلة فقط، لكنّي متأكدٌ أنّ أرواحنا تعرف بعضها تمامًا، أعلم أنك مررتِ بالكثيرِ وأنا كذلك مثلك... أرجوكِ يا مريم ثقي بي، وأعطني فرصةً لأثبتَ لكِ أنني لست مثل من سبقوني، أعدكِ لن أخذلك أبدًا؛ هذا وعد رجل.

.....

أيقظتني شمس الصّباح التي دخلت من النّافذة وصوت رنينِ الهاتف، استيقظت لأجدَ نفسي نائمةً بقميصي الأبيض، وكان بنطالي وجاكيتي موضوعان على الكرسيّ كما تركتهما بالأمس... أجبت على الهاتف...

- صباح الخير يا حلوة، كيف كانت ليلتك أمس؟

كان المتّصل وليد.

- ساحرةٌ يا وليد؛ ساحرة، هههههه كنت متحمّسةً للبقاء هنا، والمبيت أيضًا.

- استمتعي بوقتكِ يا صغيرتي، أتمنّى أن تغيّر هذه الرّحلة من نفسيتك...

قاطعنا صوت طرق الباب، قالت لي الموظفة: " الأستاذ بالصّالة ينتظرك " قلت لها: سأنزل حالًا...

غسلت وجهي وهندمت نفسي وارتديت ملابسي ونزلت إليه.

.....

- صباح الخير يا مريم... سنكمل اليوم بعض التّفاصيل في العقد، ثم آخذك بجولةٍ إلى أهمّ معالم الإسكندرية.

زُرنا قلعة قايتباي الشّهيرة ومتحف المجوهرات، وأرجأت التّجوال في مكتبةِ الإسكندرية لما بعد حفلة ختام فاعليات معرِض الكتاب.

كانت الفعاليات في معرِض الكتاب شيّقة ومتنوّعة بدءًا من المحاضرات والأمسيات والنّدوات والمسرحيات وحفلات توقيع الكتب.

في المساء قال مجدي:

- لا أعلم لمَ تصرّين أن تبيتينَ في ذلك الفندق؟!

- هل تصدّقني لو أخبرتك وتحفظ السرّ؟

- جرّبيني وسترين.

قلت:

- بعد أن تدقّ السّاعة ١٢ يتغيّر الزّمن، لحظة أن أفتحَ باب الغرفة أرى أشخاصًا تدخل عبر الباب الخارجي للبنسيون، وأناسًا تخرج منه، وأرى الدّنيا غير الدنيا والزّمان غير الزمان رغم بقاء المكان على صورته، وكأن الزّمن عادَ به إلى الوراء!

- عجيبٌ ذلك وغريبٌ يا مريم! ربما أنتِ من الأشخاص الذين لديهم القدرة على الانتقال عبر الزّمن أو بين الأبعاد، عمومًا أنا ما أزال موقنًا أن هناك ألغازٌ في هذا الكون لم نكتشفها، وما زالت النّفس البشريّة معجزة لا أحد

يستطيع فك لغزها ،و بحر عميق وغامض من الأسرار لا قعر له .

يحضرني قول سيوران:

تعيش عمرك وأنت تكتشف كل يوم شيئاً جديداً في نفسك ثم يأتي من يقول لك أنا أعرفك جيداً !!

أنعم النّظر في عينيّ ثمّ همسَ راجيًا:

- عِديني أن تخبريني بمغامراتك هناك أولًا بأوّل، وأن تتوخّي الحَذر.

- أعدكَ يا أستاذ مجدي، أعدك.

ودّعته وعدتُ إلى الفندق.

***

اللّيلة الثانية

دقّت السّاعة ١٢ ففتحت بابَ الغرفة وخرجت، أمام الفندق رأيت محمد بانتظاري، وقفت سيارةٌ من الطّراز القديم وكأنّها خارجة من أفلامِ السّبعينيات، قال السّائق لنا:

- تفضّلا، هيا بنا فقد تأخرتما قليلًا؛ هيا أسرعا حتى لا نتأخر أكثر.

قصرٌ كبيرٌ وواسع، سوره الطّويل العالي لا تبلغ العين امتداده على جانبي بابٍ حديديّ يتوسّطه، ضَغط محمد على زرٍ كهربائيّ؛ أجابَ صوتٌ أجشٌ عميق سائلًا عن هويّتنا، أجبناه؛ فُتح الباب تلقائيًا؛ استقبلنا رجلٌ طويلُ القامة عريض المنكبين، جامد الملامح، لا يطرف له رمش، يرتدي بدلةً سوداء أنيقة، قال بصوتٍ هادئ لا يتناسب إطلاقًا مع الجهامة التي اكتسى بها وجه الخادم:

- أهلا بكما. وأشارَ بيدهِ اليسرى أن اتبعاني.

دلفنا إلى الرّدهة الفسيحة التي أُقيمت فيها السّهرة.

كانت الموسيقى تصدح بأنغامها، فيتردّد صداها العَذب في أرجاءِ المكان؛ سيّدات وسادة بملابس أنيقة؛ أضواءٌ دافئة؛ ديكور مذهل، تحف، تماثيل كنت مذهولة بكلّ شيء، بدأت الموسيقى تصدح في الأجواء، وبدأ الرّاقصون يأخذون أماكنهم على الرّقعة الرّخامية المخصّصة للرّقص، وقفَ محمد أمامي ومدّ كفّه وقال أتسمحينَ لي:

وَضع محمد يده بحنانٍ حول خصري، وأرحت كفّي على كتفه، ورحنا نرقص معًا في تناغُم،

تلاقت النّظرات، كانت عينانا تلمعان فرحًا، وأنفاسنا تشتعل شوقًا، ودقّات قلبينا تزداد، كنّا نشعر أنّنا نَطير محلّقين بأجنحةِ سعادة...

كنتُ أتأمّل محمد؛ هذا الشاب الوسيم بعينيه الصّافيتين ونظراته الدّافئة وهَيبته الطّاغية، وأتمنى لو تطول الرّقصة وتطول وأبقى بجوارهِ وأستمع إلى نبضات قلبه، بينما كان هو ينظر إليّ بكلّ حبّ، و الانبهار يفيض من عينيه ،لم يقل كلمة بل كانت عيناه تنطقان

شعرنا وكأنه ليس في المكان غيرنا ، وكأن العالم ملك لنا أضواء دافئة موسيقى هادئة وأيدينا متشابكة ، وأنا وهو نرقص معاً حتى نهاية الحب.

انتهت الرّقصة ورجعنا إلى مقعدينا.

سمعتُ صوتًا من خلفي يقول:

- أهلًا بك شرفتينا.

التفتُ ورائي لأجدَ شادية، احتضنتني وقبّلتني وسألتني عن أحوالي، وهمست في أذني قبل أن تكملَ سيرها.

- محمد مغرمٌ بكِ للغاية، أنا أعرف العاشق من نظراته، لقد عانى المسكين كثيرًا منذ أن توفّيت خطيبته التي كان يحبّها كثيرًا، إنّه رجلٌ طيبٌ ومحترم وأنتِ كذلك، أشعر

أنني أعرفك من قبل، ربما التقينا في مكانٍ ما وفي زمنٍ سابق، أتمنّى لكما السّعادة.

أجبتُها بحسرة...

- لا أستطيع؛ لقد أغلقتُ قلبي للأبد، لن أسمحَ لأحد أن يؤذيني مجددًا.

أجابتني...

- أنتِ مخطئة يا حبيبتي، فالضّربة التي لا تقتلك تقوّيك، كلّنا مَررنا بتجارب وصدمات وما نزال مُقبلين على الحياة، ثم إن أصابع يدك ليست مثل بعضها.

ابتسمتُ لها وغيّرتُ مجرى الحديث...

- هل حقًا سيغنّي عبد الحليم حافظ اللّيلة؟

قالت شادية:

- نعم انظري؛ إنّه هناك وسط الجموع وراءَ البيانو، وأشارت بيدها صوبَ جمعٍ من الموسيقيين يتوسّطهم حليم، ثم أكملت شادية سَيرها وشقّت طريقها وسط معجبيها ومرتادي الحفلة إلى أن اقتربت من عبد الحليم، وهمست في أذنه وأجابها هو بابتسامةٍ لطيفة!

غنّى العندليب

<< أول مرة تحب يا قلبي

وأول يوم اتهنى

ياما على نار الحب قالولي ولقيتها من الجنة >>

رحنا نردّد سويًا كلمات الأغنية مع عبد الحليم

" قلبي يعيدلي كل كلامك

ثانية بثانية يعيدها عليا

لسا شفايفي شايلة سلامك

شايلة أمارة حبك ليا "

قلتُ:

- انظر يا محمد إلى الجالس هناك على الطّاولة؛ إنّه الأستاذ نجيب.

- هيا معي لنلقي التّحية عليه.

ذهبنا وسلّمنا عليه؛ رحّب بنا ودعانا للجلوس معه، كان يجلس بجوارِ صديقه ويتبادلان الضّحكات

- نسيت أن أعرّفكما؛ الأستاذ توفيق الحكيم أخي وصديقي.

ثم التفت إلينا وأشار للأستاذ...

- محمد ومريم أبنائي.

التفت إليّ نجيب بحنوّ أب...

- أخبريني يا مريم ما موضوع الرّواية التي تكتبينها؟

نظرت إلى محمد ثم قلت:

- حاليًا أفكّر أن أكتبَ روايةً عن فتاةٍ عاد بها الزّمن إلى الماضي، والتقت بفنانين وأدباء وشخصيات مهمّة ولها أثرها في تاريخ الأدب، وقابلت حبّ حياتها هناك.

قال توفيق:

فكرة جميلة ،إن الكاتب الحقيقي ليس ذلك الذي يرصف في لغته جملاً فخمة وعبارات جميلة ،إنما هو ذلك الذي يخلق عملاً زاخراً بالأشخاص التي تحيا وتسعى وتشعر، دون أن يحتاج في هذا العالم إلى غير قلمه وحده .

ثم أكمل :

عودة بالزمن فكرة رائعة ، ليتنا نعود إلى الماضي فعلًا، فهو أجمل من حاضرنا الكئيب المُتخم بالصّراعات والحروب.

ابتسمت له وقلت :

- صدّقني يا أستاذ؛ سنبقى دائمًا نتحسّر على الماضي.

صمتَ نجيب لبرهةٍ وعيناه تتصفحان الرّدهة الكبيرة وما حَوته من أناسٍ وأضواء، ثم أردفَ وهو يهمّ بالنّهوض...

- والآن استأذنكم، سأعود إلى البيت.

قال له توفيق وهو يمسك بيده ليجلسه مرةً أخرى:

- ما يزال الوقت مبكرًا يا صديقي.

- أعلم ذلك، لكنّي أشعر بالتّعب؛ لقد طلبت السّائق وسيحضر بعد قليل، لكنّي أردتُ أن أسلّم عليك قبل أن أذهب.

همس لي محمد...

– ونحن أيضًا يجب أن نذهبَ يا مريم، لقد تأخر الوقت ويجب أن أوصلكِ إلى الفندق.

– أرجوك يا محمد؛ قليلٌ من الوقت، مجرّد دقائق فقط، هل تظنّ أنّنا كلّ يومٍ سنحضر حفلةً كهذه؟ دَعني على الأقلّ أودّع شادية وأخبرها أنّنا سنغادر.

– حسنًا اذهبي الآن بسرعة، سأذهب لأتفقّد السيّارة وأنتظرك عند البوابة.

ذهبتُ أبحث عن شادية وسط المدعوين، إلى أن فوجئت به جالسًا بين مجموعةٍ من الأصدقاء، إنّه هو بِطلَّته البهيّة وكلماته الفصيحة وثقته الشديدة!

اقتربت منه...

- أستاذ نزار قباني؟!
- نعم.
- مساء الخير، أنا من أشدّ المعجبين بكتاباتك.

نظر إليّ بهدوءٍ وابتسم...

– تفضّلي بالجلوس أهلًا بك.

– أكملت قراءة قصائدك وأشعارك مراتٍ ومرات... أحبّ كلّ ما تكتبه.

– شكرًا لك سيدتي.

سألته...

- هل سَبق وعشت حلمًا جميلًا تتمنّى أن لا ينقضي؟ تتمنّى أن تبقى فيه ولا تعودَ لواقعك، هل سأكون أنانيّة لوأحببت و فكّرت بنفسي فقط ؟

أجاب...

غوصي في البحر.. أو ابتعدي

لا بحر من غير دوار..

إني لا أؤمنُ في حبٍّ

لا يحملُ نزقَ الثوارِ

ثم ابتسم لي وقال :

كوني شجاعةً وقرري يامريم ، الحب للشجعان

اكتنفتني لحظة صمتٍ أتبعتها بكلماتٍ لا أدري كيف أتتني...!

- أخشى أن يكون كل ماأشعر به وهم .. وبعدها ..أعود لطاولتي لا شيء معي إلّا كلمات.

صمت برهةً يستعيد كلماتي همهمةً، ثم قال:

- جميلةٌ هذه الكلمات.

- إذًا تأمّلها ربما ستُلهمك ذات يومٍ ميلاد قصيدة... أستأذنك يا سيدي لقد تأخرت.

مضيتُ مبتعدةً عن طاولتهِ ثم التفتُ له نصف استدارةٍ بجذعي وقلت ضاحكةً

- لا تنسَ يا سيدي؛ لا شيء معي إلّا كلمات. ابتسم وقال لي وأنتِ لا تنسي الحب للشجعان.

وقبلَ أن أديرَ ظهري قال لي:

- مريم، أبلغي دمشق أشواقي وسلامي.

قلت له:

- هي أيضًا اشتاقت إليك يا نزار.

أكملت سَيري واصطدمتُ بشابٍ بلا قصدٍ منّي، ومنه أيضًا على ما أظنّ، نظرَ إليّ الشاب، ثم قال:

– سبحان الله! ما هذا الجمال! هل تسمحين لي برقصة؟

– لا شكرًا أنا على عجلةٍ من أمري.

– إذًا ما رأيك أن نشربَ شيئًا؟

– قلت لك لا؛ خطيبي ينتظرني.

– لينتظرَ قليلًا وتعالي لنجلس في مكانٍ هادئ؛ أريد التعرّف إليكِ.

– قلت لك لا.

فوجئ الشاب بيدٍ تجذبه بقوّة...

- قالت لك لا؛ لم لا تكون رجلًا مهذبًا وترحل بأدبك؟!

نظر إليه الرّجل مرتبكًا، ثم إليّ...

- خطيبك؟! أعتذر عفوًا.

وابتعدَ مسرعًا خوفًا من أن تتبعثر كرامته!

قال محمد:

- سنتكلّم بهذا لاحقًا، هيا السّائق بانتظارنا.

قبل خروجنا من الباب حدثت بلبلة، وصار النّاس في حالةِ فوضى وهرجٍ ومَرج، وكأن حدثًا طارئًا وَقع، وبدّل حال الحفل والمدعوّين.

ساوَرني إحساسٌ سيئ للغاية، وتنامى هذا الإحساس عندما رأيت في الخارج سيارات الشّرطة، ورجالها المنتشرين في كلّ مكان.

سأل محمد أحدهم:

- ما الذي حصل؟
- ألا تعلم؟! لقد اختطفوا نجيب محفوظ.
- اختطفوا الأستاذ؟!
- أجل... لم يَعد إلى بيته، وقال السّائق أنّه كان ينتظره عند الباب، لكن سيارةً مجهولة ظهرت قبل أن يصعدَ إلى سيارته، وخرجَ منها رجلان يرتديان السواد، اقتاداه معهما إلى السيّارة المجهولة وانطلقوا به مسرعين! ولا نعرف مكانه ولا من الذي اختطفه ولماذا اختطفه!

قلت له:

- محمد، يجب أن نساعدهم؛ هل تعلم ما الذي يمكن أن يحدث في حاضرنا لو لم يكن نجيب محفوظ موجودًا؟!

نظر إليّ مندهشًا وآثر الصّمت، فأردفت...

– لقد ولدت الرّواية العربيّة على يديهِ تقريبًا؛ من قبلهِ لم تكن هناك سوى محاولاتٍ متواضعة، يجب أن يعودَ لننقذَ حاضرنا وننقذَ مستقبل الرّواية العربيّة.

– لكن يا مريم الشّرطة موجودة وتملك الإمكانيات، ماذا نملك نحن لنبحث عنه؟

– لا أعلم، ربما نملك الحاضر، لكنّني لا أذكر أنّي قرأت بين الكتبِ أن نجيب قد اختُطف؛ لم يدوّنوا هذا الجزء في تاريخه، ربما لو قرأنا أكثر عن أفكارهِ ومعتقداته، لعلمنا مَن الذي يحاربه ومن هم أعداؤه!

– إذًا يجب أن أعودَ إلى الحاضر، وأذهب إلى المكتبة، وأبحث عن مذكّراته، ولا بدّ أن يقودنا هذا إلى خيطٍ ما كنقطةِ انطلاق نبدأ منها تقصّي الحقيقة.

وصلنا إلى الفندق قبل طلوع الفجر.

ودّعت محمد عند المدخل، وقلت وأنا أتثاءَب واضعةً يدي على فمي:

- كانت ليلةً حافلةً بالأحداث يا أميري؛ تصبح على خير.

نظر إليّ محمد مبتسمًا...

- تصبحين على خير يا مليكتي المتوّجة على عرشِ قلبي.

أيقظني صوت المنبّه، أخذت حمامًا دافئًا وتجهّزت واتّصلت بـ خالتي...

- نحن بخير يا مريومتي نشرب القهوة أنا وخالتك أم عزيز وهي تهديك سلامها، أمل بخير يا حبيبتي، إنّها لا تتوقف عن السّؤال عنك، بالأمس أخذها وليد إلى الحديقة، ويحكي لها كلّ ليلةٍ حكاية ما قبل النوم، وآلاء تقول إن القرية لا طعم لها بدونك.

أغلقت الهاتف، واتّصلت بالسّيد مجدي وقلت له لقد حدث أمرٌ طارئ أحتاج مساعدتك.

حضرَ السّيد ويبدو على وجههِ القلق...

- خير أستاذة مريم؛ ماذا حدث؟

- لقد اختطفوا نجيب محفوظ، وأريد أن تساعدني لإنقاذه؛ لذا لنبحث بين الكتب عن شيءٍ يقودنا إلى ما حصل في تلك الفترة مع الأستاذ نجيب، لا بدّ أن نعثرَ على مذكّراته.

قال لي:

- أعرف المكان المناسب لهذا.

ما كاد ينطقها حتى التمعت عيناي من الحماس...

- مكتبة الإسكندرية؟!

وصلنا إلى مكتبة الإسكندرية التي تعدّ تحفةً معمارية وصرحًا من صروح الثّقافة في مصر، جدارية المكتبة تمّ بناؤها من الجرانيت

الرماديّ؛ تضمّ العديد من الرّموز والنّقوش والحروف الأبجديّة من جميعِ أبجديات العالم على مرّ العصور التاريخيّة.

تحتوي المكتبة على سبعِ مكتبات متخصّصة ومتحف للآثار والقطع الأثريّة، ومتحف السّادات؛ ذلك الزّعيم المصريّ الرّاحل صاحب إنجاز حرب أكتوبر المجيدة، ومعرض لوحات وأعمال فنيّة، وتماثيل من البرونز لأهمّ رموز المفكّرين والأدباء، وآيات قرآنيّة وجزء من كسوة الكعبة المشرّفة.

وتحوي المكتبة أيضًا مجموعةً كبيرةً من الكتب، تقدّر بحوالي مليون ونصف المليون كتاب ورسائل علميّة وخرائط.

***

بين الكتب

سألني مجدي هل توصلتِ لشيء؟

قلت: كان لنجيب محفوظ مذكّرات اسمها الأعوام.

- جميل.

تابعت... يذكر هذا في حديث صحفي...

- حين قرأت الأيام لطه حسين ألّفت كراسةً أو كتابًا أسميته الأعوام، كتبتُ فيها قصّة حياتي على طريقةِ طه حسين.

وحين سأله الصحفيّ عن احتفاظهِ بكراسة الأعوام...

أجابه: نعم؛ أعتقد أن الشّعر والكرّاسة موجودان، ولكن يحتاجان إلى نبشٍ كثير حتى أعثرَ عليهما.

عندها ألحّ عليه الصحفيّ أن يعرفَ مصير الأعوام، أجابه بعصبيةٍ مفاجئةٍ ومستغربة، فالمعروف عن نجيب أنه هادئ وصبور إلى أقصى درجات الصّبر!

- أحرقتها...

لقد كان متحفظًا بالنّسبة لحياتهِ الشخصيّة!

- هكذا عُدنا إلى الصّفر. قال مجدي.

قلت له:

- كلا أبدًا... وجدت شيئًا هامًا في كتاب " أنا نجيب محفوظ " يذكر فيه أن المجتمع لم يحتمل نشر رواية (أولاد حارتنا) الممنوع طباعتها في مصر، وكادَ أن يُغتال بسببها!

ذُهل مجدي...

- اغتيال... ألهذه الدّرجة وصلَ بهم الحقد والتعصّب؟!

- لنبدأ من هذه النّقطة ونبحث في النت عن روايةِ أولاد حارتنا ومحاولات اغتياله.

ضغط مجدي زر المتصفّح ونقرَ بخفةٍ على لوحة المفاتيح، وراحَ يقرأ ما ظهرَ من النّتائج المتعلّقة بموضوعِ البحث.

- يقول هذا الخبر أن هذه الرواية - يعني أولاد حارتنا - كانت السّبب في تكفيرِهِ واتّهامه بالتّجاوز في الأفكارِ الدينيّة...

وهنا يذكر أنه بعد أن حصلَ محفوظ على جائزةِ نوبل؛ تعرّض لهجومٍ من متطرفٍ دينيّ عام ١٩٩٤؛ طعنه بسكينٍ في رقبته، لكنّه نجا من الطّعنة، بينما فرّ الجاني برفقة زميلٍ آخر له، كان ينتظره على دراجةٍ نارية.

قلتُ له: ٩٤؟! ألم يذكر أنّه كان هناك محاولة أخرى لاغتياله في تاريخٍ آخر؟

أجاب...

- ربما توجد محاولةٌ أخرى لكنّها لم تُذكر أو يُعلن عنها، وظلّ الأمر سرًا بعد أن أحجمَ الإعلام عن تناول أحداثها وتفاصيلها، ربما لدواعي أمنيّة أملت عليهم ذلك التكتّم المتعمّد!

- ماذا سنفعل؟ ماذا لو نجحوا؟ هل سنقف مكتوفي الأيدي؟

- نجيب ليس هو من أنجبَ الرّواية العربية فحسب، بل قفزَ بالأدبِ العربيّ إلى العالميّة

كان نجيب يعمل كسيناريست للأفلام قبل أن يكون كاتبًا ووضع أسسًا أدبيّة مَتينة للسينما التي واكبته وأتت من بعده، وكانت من قبلهِ سردٌ بلا بناء.

قال مجدي:

- الآن وقد عرفنا من هم أعداؤه وما دوافعهم، ربما هذا سيسهل عملنا.

قلتُ له:

- أجل بالتّأكيد، بقيَ لنا أن نبحثَ عن خيطٍ يوصلنا إليهم، أنا ذاهبة الآن.

- توخي الحذر يا مريم.

***

الليلة الثالثة

عدتُ إلى الفندق قبل منتصفِ اللّيل، حيّيت الموظفين ودخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب،

كان هناك بعض الفاكهة والعصير على الطّاولة، سكبت العصير بالكأسِ ورحتُ وأنا أراقب

عندما أصبحت السّاعة ١٢ودقّت ١٢ دقّة، وقفتُ متأهبةً وأخفيت شيئًا في جيبِ سترتي، ثم اتّجهت ناحية الباب أمسكتُ مقبضَ الباب وأدرته، فتحتُ الباب؛ وجدت شادية في ردهةِ الفندق تنتظر السّائق، وعندما رأتني ابتسمت وحيّتني.

- مرحبا يا مريم... أنا كنت ذاهبةً لأحدِ أصدقاء نجيب محفوظ؛ أحمد مظهر ، أنّه يعرف أخبارًا جديدة، هل تريدين الذّهاب معي؟

وافقت بكلّ سرور، وصعدتُ معها إلى السّيارة... ثم التفتَ إليّ الشّخص الجالس بجوارِ السّائق...

- مساء الخير يا سيدتي وحشتينا.

لأتفاجأ أنّه محمد!

قالت شادية: ألم تكبر على حركاتك هذه يا ولد؟!

وضحكنا معًا، ونحن في الطّريق سألني محمد...

- هل توصلتِ لشيء؟

- أجل لقد كان هناك بعض الجَدل على روايةِ أبناء حارتنا التي كتبها نجيب، رغم أنّه أوضحَ كثيرًا أن هناك مَن فهمها بشكلٍ خاطئ، كان رجلًا مسالمًا، ولا يحبّ العداوات ولا الجدال، لكن دائمًا كان هناك من ينتظر أيّ منفذٍ لينفسَ فيه عن حقده.

وصلنا إلى منزل أحمد مظهر، فاستقبلنا بأناقتهِ ولطفه وطلّته البهيّة...

قالت شادية: أعرّفكما على واحدٍ من حرافيش نجيب... أحمد مظهر، محمد ومريم أصدقائي.

قال الأستاذ أحمد: تشرّفنا.

سأله محمد: لديّ فضولٌ حول معنى كلمة الحرافيش.

أجابه أحمد مظهر: الحرافيش هو لقبُ أصحاب وأصدقاء نجيب محفوظ، وهي كلمةٌ تركيّة تعني حارة اللاشيء أو لا يوجد حارة، والمقصود بها الصّعاليك، ومنها استوحى نجيب اسم روايته المشهورة.

سألته شادية: هل هناك جديد بخصوص حادثة اختطاف الأستاذ نجيب؟

قال لها: سيجدونه لا تقلقي، المسألة مسألة وقتٍ فقط.

صمت هنيهةً وشردَ للحظاتٍ ثمّ أردفَ...

- في ليلةِ الحفلة كنت واقفًا في بلكونة الفيلا، ورأيت السّيارة التي اختُطف فيها، وحفظتُ رقم لوحة السّيارة قبل أن تنطلقَ مسرعةً وأعطيته للشّرطة، التي عمّمت الرّقم على جميع الكمائن الشرطيّة المتواجدة على مخارج ومداخل الإسكندرية، وتبحث عن السّيارة في كلّ مكان.

- أخبارٌ رائعة أتمنّى أن يجدوه.

حاولنا استعراضَ المعلومات التي لدينا...

في تمام السّاعة ٢:٣٠غادرت الفيلا سيارة سوداء يقودها رجلان يرتديان الزي ذاته بنطالا أسود وقميصا أسود، أحدهما ضخم البُنية والآخر نحيف.

تردّدت قليلًا قبل أن أخبرهم عن أحلامي...

- لقد كنت أحلم بنجيب محفوظ في مكانٍ مظلمٍ وبارد وينادي باسمي.

- وما شكل المكان الذي كنت ترينه فيه؟ هل لاحظتي علامةً مميزة؟ سألني أحمد مظهر.

وصفت لهم المكان الذي في الحلم...

- مكانٌ مهجورٌ يبدو كأحدِ الآثار أو المعالم التاريخيّة، مدرّجات مصفوفة فوق بعضها على شكلِ حرف U.

نظر محمد وشادية إلى بعضهما، ثم صرخا معًا...

- المسرح الروماني.

قال محمد: أنا لن أستطيعَ الذّهاب إلى هناك... لم أزر المكان منذ...

نظرت بحنوٍ في عينيه وقلت:

- منذ أن توفيت خطيبتك، كانت تحبّ أن تذهبَ هناك لتقرأ، لكنني أحتاج مساعدتك، نجيب يحتاجنا، التاريخ كلّه يحتاجنا الآن يا محمد، يجب أن تتجاوز تلك الأزمة رغم مرارتها؛ أرجوك يا محمد.

- لكن الوقت تأخر والمكان مظلم، وإذا كان فعلًا في مكانٍ قريبٍ من هناك، فمن الخطورة أن نذهب بمفردنا، ويجب أن نبلغ الشرطة.

- سنستكشف المكان فقط والأماكن التي حوله، ونرى إذا كان هناك سيارة أو بناء مهجور أو حركة مشبوهة.

التفت إلى شادية وبنبرةٍ هادئةٍ دافئة قلت لها:

- أيمكننا استعارة سيارتك يا سيدتي؟

قالت: بالطّبع يا مريم، لكنّي لن أدعكما تذهبان هناك وحدكما، لنذهبَ جميعًا.

قال أحمد مظهر: هيا بنا.

كان المسرح يتألّف من ١٣ صفًا من المدرّجات الرّخامية، وكان يستخدم كصّالة لسماعِ الموسيقى حيث تتواجد فيه منطقة للأوركسترا بأرضيةٍ مزيّنة بالفسيفساء، وبقايا أعمدة يُقال أنّها كانت تسند قبّة سماوية، ولكن لم يبقَ منها سوى قواعد الأعمدة،

قاعات للدّراسة وحمام روماني بخاري يشبه السّاونا في عصرنا، ومنازل، بالإضافة إلى تماثيل فرعونيّة أُحضرت إلى هنا بعد أن عُثر عليها غارقة بالقربِ من قلعة قايتباي، منها تمثالين لأبو الهول ومسلة ورؤوس حجريّة.

كان المشهد يبدو كلوحةٍ شاعرية، في تداخلٍ جميلٍ بين الحضارتين الرومانيّة والفرعونيّة، ما إن وصلنا إلى المكان؛ أطفأنا أنوار السّيارة واقتربنا أكثر، وسبقت الجميع وقدماي تشدّاني كالمسحورة وكأنّني أحفظ المكان عن ظهرِ قلب، وسطَ ذهولِ أصدقائي.

أشرتُ إلى أحدِ الأنفاق التي تستخدم لتوصيلِ المياه بجوارِ الحمام البخاري لننزلَ هنا، قاطعني أحمد مظهر:

- هناك سيّارة سوداء مركونة بجوارِ أحد البيوت المهجورة لنتحقق منها أولًا.

قال محمد: سأذهب أنا، ابقوا في مكانكم.

عاد محمد يحمل بيدهِ ورقةً كتب عليها رقم السيارة، الذي تبيّن لنا بجلاءٍ غريبٍ أنّه مطابقٌ للرقم الذي دوّنه أحمد مظهر حين رأى عملية اختطاف الأديب الكبير؛ لذا قرّرنا أن نعودَ أدراجنا ونُخبر الشرطة، ليتولّوا هُم مباغتة المختطفين وإنهاء عملية الاختطاف.

أُغلق الطّريق المؤدّي إلى المسرح الروماني، أصبح المكان كلّه محاصرًا بسيارات الشرطة، بحيث لا يمكن لأحدٍ الهَرب أو الإفلات.

وقفت سيارات الشرطة بحالةِ تأهب، وأفرادها متأهبون للبدءِ في عملية تحرير الأديب لحظة تلقّيهم الأمر... شَكَرنا الضّابط، وأخبرنا بلطفٍ أننا نعطّله عن القيام بعمله قائلًا:

" شكرًا لتعاونكم، يمكنكم العودة إلى المنزل، ونعدكم بأننا سنجد الأستاذ في أقربِ وقتٍ

بسبب إلحاحي ". وعد محمد الضّابط أننا لن نتدخلَ في عملهم أبدًا وسنبقى نراقبهم من بعيد،

بناءً على وعده سمح لنا الضّابط بالانتظار والترقّب على أن نظلَّ داخل السّيارة ولا نُغادرها إلا إذا أَذن لنا بذلك.

قلت: لماذا لم يتدخلوا إلى الآن؟ قد يؤذون نجيب وكل ثانيةٍ تمرّ ليست من صالحنا.

- يجب أن يأمّنوا المكان جيدًا، ثم نحن لا نعرف طبيعة المختطفين، ويمكن أن يكون كمينًا، أو يكون المكان ملغمًا... لن يغامروا بعملاءِ الشرطة.

هكذا أجابني محمد ليهدّئ من روعي، وقلقي على سلامة الأديب.

- لكنني لن أستطيعَ الانتظار، سأذهب بنفسي لأنقذَ نجيب...

- ابقي في مكانكِ يا مريم، أرجوكِ لا تكوني متهوّرة، ودَعي الشرطة تباشر عملها، ثم ماذا ستفعلين له وكيف تواجهين من بالدّاخل؟ ومن المُحتمل أن يكون عددهم كبير، وأن يكونوا مسلّحين.

أخرجتُ من جيبي أداةً لامعة...

- سأنقذه بهذا.

ضرب محمد بكفّه على جبينه...

- أأنتِ مجنونة؟ سكينة الفاكهة! سوف تميتيهم ضحكًا.

- ربما إنه الآن بالدّاخل يتضرّع إلى الله أن ينقذه أحد، لا تنسَ يا محمد، لقد كان يستنجد بي، روحه كانت تظهر لي في المنام وتناديني أنا، اختارتني أنا بالذّات حتى أنقذه، ويستحيل أن أخذله سأذهب الآن لإنقاذه.

خرجتُ من السّيارة مسرعةً وعبرتُ الطّريق راكضةً نحو النّفق...

- مريم توقفي عودي ماذا تفعلين؟!

سمعت صوت الضّابط يقول: عودي يا مريم هذا أمر...

تجاهلت الجميع... وصلت إلى مكانِ الغرف والأقبية المستخدمة لتوصيلِ المياه، نزلت من على الدّرج؛ المكان مظلمٌ للغاية! استجمعتُ قوايَ... تلفتُ حولي وواصلت المشي بين الغرف الصّغيرة والأقبية والأفران التي تستخدم لتسخينِ مياه الحمام... واصلت سيري وأنا أحاول تشجيع نفسي، لكنّي لم أجد أحدًا!

كان المكان يبدو مهجورًا وقديمًا جدًا، يخامرني شعورٌ أنه من المحتمل في أيّ لحظةٍ أن يتداعى منهارًا فوق جسدي النّحيل، لكنّني رغم ذلك تماسكت، كل شيءٍ كان مظلمًا حولي، أمسكت سكّيني ورحتُ أنادي...

- أستاذ نجيب أأنت هنا...؟ أستاذ نجيب... هل من أحدٍ هنا؟

سمعت صوت أحدهم يركض مسرعًا، ثم صوت محرّك السّيارة ينطلق، أمر الضّابط قوات الشرطة بالتدخل الفوريّ لمنعِ هروب المختطفين.

سمعت صوت تبادل إطلاق النّار، الذي ما لبثَ أن انتهى، وعَلمت فيما بعد باستسلامِ المختطفين... رحت أبحث في الظّلام عن أحدٍ ما حتى سمعت صوتًا يهمس: " أنا هنا ".

دخلت الشرطة بكشّافاتها المضيئة، لنجدَ الأستاذ نجيب مقيدًا على الكرسيّ، رحت أفكّ وِثاقه وطمأنته أنّه بخير، وطمأنت نفسي أن التّاريخ أيضًا بخير.

تقدّم منه أحد رجال الشرطة ليطمئنَّ عليه وسأله:

- هل أنت بخير يا سيدي؟
- نعم أنا بخير...
- لقد أمسكنا الخاطفين؛ إنّهما شابان متطرّفان يصدّقون أيّ شيءٍ يُقال لهما، ويتبعون أيّ أحدٍ دون أن يحكّموا عقولهم.

قال نجيب: حصل خير... أرجو أن لا تؤذوهما.

قال له الضّابط: سنرى ما يمكننا فعله.

دخل محمد واطمأنّ على وضعِ نجيب، واعتذرَ من الضّابط على تصرّفي، ثم نظر محمد إليّ نظرةً غاضبة...

- لقد أعطيتُ وعدًا للضّابط والشرطة أن نكون هادئين ولا نتدخل في عملهم، فسخرتِ منّي واستهزأتِ بي أمام الجميع، ولم

تحسبي لي حسابًا يا مريم! لقد وَعدتني إن تدخلنا في هذه القضيّة أن تتّبعي توجيهاتي، ولكنّك لم تنفّذي وَعدك، كان من الممكن أن يحدثَ لكِ مكروهًا أو للسّيد نجيب أو لأحدٍ من رجال الشرطة.

أجبته وقد تغيّر لون وجهي لاستيائي من لهجتهِ الحادّة:

- لكنّي لم أتسبّب بأيّ مكروهٍ وحلّت القضيّة على خير، وأنقذنا التاريخ.
- أنتِ لا تستمعين لأحد إلا لنفسك متجاهلةً وجودي تمامًا... والآن هيا بنا لأعيدكِ إلى الفندق قبل أن تتسبّبي بأيّ فوضى أخرى، والحمد لله أنها انقضت على هذا.

أوصلني محمد إلى الفندق وذهب، ولم يودّعني أو يحدّثني طوال الطّريق...

لم أستطع النّوم...

في الصّباح اتصلت بـ خالتي و" ليلو " وحادثتهما مكالمة فيديو...

- ماما متى ستعودين؟ اشتقت لك.
- اليوم طائرتي يا ليلو، سأعود لكِ اليوم.
- هل أحضرتِ لي اللّعب التي وعدتني بها؟
- لعب وفساتين وشرائط شعر وأشياء كثيرة، كوني فتاةً مطيعةً ولا تعذبي خالتي.

أنهيت المكالمة، وارتديتُ فستانًا أبيض منقوشًا بأزهارٍ ملوّنة، ثم غادرت الفندق ورفعت يدي أستوقف سيارة أجرة، فتوقفت

أمامي واحدة، استقليت السّيارة إلى نادي الكتاب التّابع لأحدِ الأندية الثقافيّة لمناقشةِ روايتي الأخيرة.

بعد أن أنهيتُ المناقشة ووقعتُ نسخًا من روايتي مع القرّاء؛ ذهبت إلى السّوق لأشتري هدايا لــ ليلو وخالتي ووليد وأصدقائي، ثم تناولت بيتزا لذيذة.

في المساء عُدت إلى الفندق...

***

الليلة الرابعة

كانت شادية تشرب فنجانًا من القهوة في الرّدهة مع بعضِ أصدقائها، اقتربت منها وحيّيتها، وما إن رأتني قالت:

- تعالي أيّتها البطلة.

ثم التفتت لأصدقائها وقالت:

– هذه مريم التي حدّثتكم عنها وعن شجاعتها.

قلت لها:

- فعلت ما أملاه عليّ ضميري وحبّي للأدبِ ولوطننا العربي... طمئنيني على الأستاذ نجيب...
- إنّه بخير والشرطة تحفّظت على الموضوع، ولن يصلَ إلى الصّحافة والإعلام؛ لا نحتاج شوشرة.
- الحمد لله على سلامته.

أمسكت بيدي وقالت:

- هل أنتِ بخير...؟ تعالي نجلس على انفراد.

واستأذنت من ضيوفها، وجلسنا على كنبتين منعزلتين...

- ما بكِ يا مريم؟
- أنا عالقةٌ بين عالمين، بين حياتين، لا أعلم ماذا أفعل، ليكن الله في عوني.

- أظنّ يا عزيزتي أنكِ أنتِ من عليك أن تقرّري إلى أيّ العالمين تنتسبين، وتتحمّلي نتائج قرارك.

ثم ربتت بكفّها على كتفي وأردفت...

- لا تقلقي سيتجلّى لكِ كلّ شيءٍ في حِينه.

وراحت تدندن كلمات أغنيتها الشهيرة...

إن غاب عنك يا عين هيروح من قلبي فين

ده القلب يحب مرة... ما يحبش مرتين

ثم سألتها:

- محمد... أين أجده؟

ابتسمت لي وقالت:

- أحد أصدقائه سيتزوّج، وسيكون متواجدًا في الحفل، سأطلب من السّائق أن يوصلكِ إلى مكان الحفل.

قرّرت أن أفاجئه هناك، ثم نذهب لتناولِ العشاء معًا.

عندما وصلت إلى الحفلة؛ سألت أحد الموجودين عنه؛ أشارَ لي بيدهِ إلى إحدى الطّاولات.

اخترقتُ الصّفوف وسط المدعوّين حتى اقتربتُ من طاولته، وجدته جالسًا بكاملِ أناقته ووسامته وجاذبيته، وعلى الكرسيّ المقابل كانت تجلس فتاةً سمراء البشرة جذّابة الملامحِ ترتدي فستانًا أنيقًا وهما يتبادلان الضّحكات.

عندما رآني محمد ذُهل وارتبكَ ولم يعرف ماذا يفعل!

صدمتُ برؤيتهما وأصبح دمي يغلي فقلتُ له:

- يبدو أنك مشغول؛ أليس كذلك؟

رحّب بي وقال:

- لا أبدًا، كنّا نتحدّث عن أمورِ العمل الروتينيّة، وقد انتهينا.

ثم أشارَ بيده جهة مرافقته وقال لي:

- ندى، زميلتي في المكتب.

ثم التفت ناحيتي وأشارَ لها بيده...

- مريم خطيبتي.

وقفت ندى أمامي مبتسمةً وحيّتني ومدّت يدها إليّ لتُصافحني، فصافحتها بجفاء...

- تشرّفنا أستاذة مريم... استأذن.

اقتربَ محمد منّي وسألني:

- ما بكِ تبدين على غير طبيعتك؟ هل من الممكن أنك تغارينَ عليّ!

- لا أغار ولا شيء، أنتَ حرّ فلتفعل ما تشاء.

قال لي حسنًا:

- ما رأيك أن نتحدّث بهدوءٍ بعيدًا عن هذا الزّحام؟ انتظريني قليلًا حتى أسلّم على صديقي العريس ونخرج.

وقفت خارج القاعة أنتظره...

رأتني ندى من بعيدٍ فاقتربت منّي وقالت لي:

– أستاذة مريم، ليس بيني وبين محمد أي شيءٍ سوى زمالة العمل، فاطمئنّي.

نظرتُ إليها ببرود...

- عفوً أنا لا أفهم عن ماذا تتحدّثين!

صمتُ للحظةٍ استكشف وَقع كلماتي عليها، ثم أردفت...

- أنتِ واهمة، لمَ لا تهتمّين بعملكِ أكثر، بدلًا من محاولتك طمأنتي على شيءٍ لم أفكّر فيه إطلاقًا.

أقبلَ محمد وقال لي:

- هيا بنا... أحبّ أن أمشيَ معك.

تمشينا معًا في الشّوارع، غنينا معًا وضحكنا، وتسابقنا مثل الأطفال، ركبنا المراجيح ورحنا نتأرجح، وندفع بأنفسنا إلى السّماء.

نظر إليّ محمد بجديّة...

- مستعدة؟

- مستعدة.

وأفلتنا أنفسنا من الأرجوحة، فوقعنا على الرّمال ونحن نضحك.

شعرت حينها كأنني أطير بين الغيوم! ومحمد يحملني على جناحيه، ويطوفُ بي كلّ سماوات الحبّ والعشق والهيام، رأيت

جمال الكون كلّه، كواكبه ونجومه وشمسه وقمره وبحاره وأنهاره، سهوله وجباله، رأيت ذلك كلّه في نظرات عينيه في لحظة... لحظة واحدة!

لأفيقَ من غرقي في حدقتيّ عينيه؛ ويهبط بي إلى أرضِ الواقع...

- ما رأيك أن نذهبَ إلى شاطئ البحر؟

كان القمر بدرًا؛ ينعكس نوره على البحر، فيبدو كأنّه مرآة من فضّة تتماوج الأضواء على سطحها، ونسيم الهواء عليلٌ يتناغم مع هديرِ أمواج البحر، فيعزفان معًا سيمفونيةً ساحرةً تصدح في أرجائهِ الشّاسعة، الممتدّة بلا نهايةٍ تدركها الأبصار.

- أكاد لا أصدّق أنكَ معي الآن! أنا وأنت والبحر! كم أتمنّى لو يتوقّف بي الزّمن عند هذه اللّحظة فقط.
- أتعلمين يا مريم الفرق بين السّعادة والمتعة؟ عندما نفتقد السّعادة نحاول التّعويض عنها بالمتعة، التي تُعطينا شعورًا مؤقتًا بالسّعادة؛ يزول بزوال نوع المتعة، لكن عندما نعثر على سعادتنا، لا نحتاج للمتعة.

صمتَ برهة وشردَ يتأمّل تكسر الأمواج على الشاطئ، ثمّ ما لبثَ أن التفتَ ناحيتي، وأرسلَ نظراته تخترق عينيّ، وتواصل تسلّلها إلى أعماقِ روحي.

- هذا بالضّبط ما حصلَ لي عندما عرفتك، لم أعد أحتاج لشيءٍ آخر.

أمسكَ عن الاسترسال، وثبّت نظراته الجادّة في حدقة عينيّ...

- مريم.

أجبته بقلبي قبل شفتيّ:

- نعم يا قلب مريم .

- أريدك أن تثقي بحبّي لك، فأنا لم ولن أحبّ أنثى سواك، أريدك أن تطمئني من هذه النّاحية، أنا لو كنت أريد اتّخاذ عشيقةً أو خليلةً لفعلت ذلك منذ سنوات، لكنّي لستُ من هذا النّوع، هي امرأةٌ واحدةٌ فقط تأتي لتختصرَ الأنوثة كلّها بها.

قلت والخجل يمتزج مع لمحات غضب يشكلان ملامح وجهي:

- لا أعلم ماذا حصل لي عندما رأيتك معها! كدتُ أجنّ... فقدت عقلي، اشتعل قلبي نارًا.

سكتُ للحظاتٍ أتذكّر ما حدث، ثمّ استطردت بأسى:

- يبدو أنني قد كنت فظةً مع الفتاة، وأشعر بالخجل من تصرّفي معها.

- لا عليك، ستتفهم ذلك؛ أيّ واحدةٍ مكانك كانت ستشعر بمثلِ ما شعرتي به، لكن الأهمّ أنني سعيدٌ جدًا وأنا أرى غيرتك عليّ.

- هل هذا يسعدك؟

ضحكت من نفسي وأنا أسأله ذلك السّؤال الذي لا معنى له، لكنّي وبدون أن أشعر قلت:

- أغار عليك من نفسي لأني... أغار عليك وأنت مني...

ضحكَ حتى بَدت نواجذه وقال:

- وشاعرةٌ أيضًا! لقد تفوّقتِ على أبي فراس الحمداني بشعرك هذا على شعره

إذ قال: " أكاد أشكّ في نفسي لأني... أكاد أشك فيك وأنا منّي ".

- عندما تراني غاضبةً ومجنونة وعلى وشكِ أن أقتلَ كلّ مَن تقترب منك؛ احذر منّي فقد أقتلك أنتَ أيضًا ثم أنتحر، إذ لا حياة لي بدونك.

- ما أجمل النّظر في عينيك! وما أرقّ من موتٍ على يديك! حينها أموت وأنا بقمّة السّعادة... هل تعلمين يا حبيبتي ماذا تشبهين؟

نسمةٌ رقيقة حلوة، فأتنفّسك عشقًا، وأحتفظ بك في داخلي في قلبي، ثم لا تلبثينَ أن تصبحي جلطةً في القلب تلتصقين بشرياني وتتحكّمين في نبضي وحياتي وأنا أتوسّل إليكِ أن تتركيني أعيش يا قدري الجميل.

- أريد أن أعتذرَ منك يا محمد على تصرّفي ليلة أمس لم أتقصّد التّقليل منك أو إحراجك.

- هههههه، وأنا يا مريم أتفهم موقفك؛ قلت ما قلته من خوفي عليكِ، لأنك مسؤوليتي وأمانة لديّ، لكن أخبريني بماذا كنت تفكّرين وأنتِ تهاجمين الخاطفين بسكينةِ الفاكهة؟

وضحكنا ....

- لقد تعوّدتُ عليكِ، على جنونكِ ورقّتكِ، ابقي هنا يا مريم أرجوكِ لنعيشَ معًا ونتزوّج لا تغادري.

- لا أستطيع يا محمد؛ لديّ طفلة ولديّ عائلة؛ لا أريد أن أفجعهم بفقدٍ آخر، يكفيهم ما عانوه، كما أنّ لديّ أمورٌ يجب أن أُنهيها.

ظلّ صامتًا ولم ينطق، إلى أن بدا لي أنه يحدّث نفسه، دون أن يرفعَ عينيه المنكسرتين إليّ:

_ لقد خسرتُ كل شيء؛ خسرتُ رؤى، كان يجب أن أحادثها أن أودّعها على الأقلّ، لكنّها رحلت دون وداع...

كم أنا نادم! أنا الآن رجلٌ حطّمه الألم، لقد أصبحت تائهًا أضعت كلّ شيء، أضعت نفسي...

ثم رفع عينيه الحزينتين وقد بلّلهما الدّمع...

- وعندما وجدتكِ شعرت أنكِ تجمعين أجزائي.

سألته:

- هل ما زلتَ غاضبًا منها؟ هل ما تزال غاضبًا من رؤى؟

صمتتُ برهة، ثم تابعتْ...

- كانت مسافرة في عطلة رأس السّنة إلى بيتِ أهلها في القرية، وكنتَ غاضبًا منها، ولم تودّعها، لأنها ذهبت إلى حفلةِ الجامعة وسهرت مع أصدقائها... رغم أنك كنتَ رافضًا لذلك، كان الجوّ عاصفًا ومظلمًا وممطرًا، والشّوارع مليئة بالماء، السّيارة تسير مسرعة، المطر غزير، الأرض زلقة، ثم ظهرت

فجأةً أضواءٌ قوية لشاحنة، وصوت ارتطامٍ قويّ وانتهى كلّ شيء.

لقد كانت طالبة جامعية وتعيش هنا في هذا الفندق.

دمعت عينا محمد...

- لقد سامحتها سامحتها... سامحتك يا رؤى، سامحتك.

مسحتُ على كتفيه، فهدأت من روعهِ قليلًا.

- لقد كنت متأكدًا أنكِ كنتِ تعيشين هنا يا مريم.
- وأنا الآن تأكدت أنّها لم تكن أحلامًا؛ كانت ذاكرتي...

أحجمت فجأةً عن الكلام؛ لا أدري لم! نظرت إليه وشوقٌ يجتاحني كأنّي أراه لآخرِ مرة...

- إلى اللقاء... في زمنٍ آخر يا محمد... سأفتقدك كثيرًا يا ملاكي الحارس.
- وأنا أيضًا سأفتقدكِ كثيرًا يا مريم، أتظنّين أن الأمر سهلٌ عليّ؛ لطالما تخيّلت أنكِ معي في وطني، هنا في الإسكندرية حيث البحر والأهل ورفقاء الصّبا، وهناك في القاهرة نجري في شوارعها الفسيحة، ونتمشى على كورنيش نيلها، وحين يرحل الخريف ويأتي الشّتاء حاملًا برودته بين كفّيه، نحمل حقائبنا ونرتحل إلى أسوان حيث الدّفء والحضارة المصريّة القديمة، وأهلها الطيبين.

- وأنا يا حبيبي كم تمنّيت وتخيّلتك معي؛ أنا وأنت وليلةٌ في دمشق القديمة، أو يومٌ ربيعيّ هانئ في أحضانِ قريتنا الحالمة النّائمة في أحضانِ وطني الحبّ سورية، فأيقظهَ وأقول له

" أعرّفك عليه يا وطني؛ هذا حبيبي محمد، هذا الرّجل وطني، يا وطني ".

تزوّج يا محمد، أحبّ وافرح وعش حياتك، يشهد الله أنك كنت رجلًا معي من أولِ يومٍ عرفتك فيه، وإلى آخرِ لحظةٍ أودّعك فيها، اذكرني بخير، أستودعك الله.

الحب للشجعان

الحبّ يحتاج لشجاعةِ قلب، يجب أن نخرجَ منه بشجاعةٍ كما دخلناه بشجاعة، أن تعرفَ كيف تغلق الباب وراءَك بإحكامٍ على الحكاية، ولا تبقِ الباب مواربًا لتتلصّص على بقاياها، الحكاية انتهت، عليك أن تتقبّل النّهايات والخسارة، كما كنت تتقبّل البدايات والنّجاح، وهنا يَكمن المعنى الحقيقيّ للشّجاعة، شجاعةٌ تقبل الخسارة، إنّنا لا ننضج إلا بقدرِ ما نتقبّل خساراتنا.

يقول جلال الدين الرومي: " لا تبكِ على ما فَقدته، فكلّ شيءٍ تفقده يعود إليك في هيئةٍ أخرى ".

***

مدينة العشق والياسمين

فرشت فوق ثراك الطّاهر الهدب
فيا دمشق لماذا نبدأ العتبا؟
حبيبتي أنت فاستلقي كأغنية
على ذراعي ولا تستوضحي السببا
أنا قبيلة عشاق بكاملها
ومن دموعي سقيت البحر والسحبا
كم مبحر وهموم البر تسكنه
وهارب من قضاء الحبّ ما هربا
يا شام إن جراحي لا ضفاف لها
فامسحي عن جبيني الحزن والتعبا

وصلت إلى دمشق مساءً... شعرت وكأني غبتُ عنها لقرون، ذهبت إلى الجامع الأمويّ للصّلاة فيه.

بُني الجامع الأموي عام ٧٠٥ على يدِ الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك، واستغرقَ بناؤه ١٠ سنوات، يُعتبر الجامع جوهرة العمارة الإسلاميّة، وأحد عجائب الإسلام السّبع، ومئذنته تعدّ الأقدم في تاريخِ العرب والإسلام، وكانت تُقام فيه حلقات علميّة ودينيّة، مما جعلَ دمشق من أهمّ المدن التي ترعى العلم والفكر والحضارة.

صلّيت وبكيت بين يدي الله... رفعت يدي دَعوته أن يقوّيني وأن ينيرَ لي بَصيرتي ويدلّني أنا الحائرة التّائهة في دروبِ الحياة.

زرت قلعة دمشق أحد أعظم المعالم الأثريّة وأكبرها في دمشق القديمة، التي تشكّل نموذجًا رائعًا لفنّ العمارة العسكريّة، يوجد أمام القلعة تمثالٌ كبيرٌ من البرونز لصلاح الدين الأيوبي على جوادهِ محاطًا باثنينِ من الجند المسلمين، وخلفه اثنان من أسرى الفرنجة.

رحتُ أتجوّل في أزقةِ وأحياءِ المدينة العتيقة، وشعاع القمر الفضيّ يُنير المكان ونسمات الهواء العليل تأتي محملةً برائحةِ الياسمين واللّيمون...

ودّعت دمشق ثم استقليت أول حافلة مغادرة، وعدتُ إلى قريتي.

وصلتُ إلى قريتي الصّغيرة مع بدايةِ خيوط الفجر، وقد أعددتها مفاجأةً لخالتي ووليد، ولم أخبرهما بموعدِ وصولي، طرقتُ الباب، كانت خالتي تقرأ القرآن وتسبّح كعادتها كلّ صباح، فتحت الباب وفوجئت بي؛ حضنتني...

- مريم؛ لماذا لم تخبرينا بموعدِ عودتك؟
- أردت أن تكون مفاجأة، أين أمل ووليد؟ أريد أن أُريها الهدايا التي أحضرتها لها.
- أمل نائمة ما يزال الوقت مبكرًا، ووليد في المستوصف كانت لديه مناوبة ليليّة.
- سأذهب لأفاجئه.

أخذت معي ساندويتشات وقهوة، وذهبت إلى وليد لأجده نائمًا على أريكةٍ جلديةٍ رماديّة اللّون في إحدى قاعات المستوصف.

تأمّلته؛ وجهه بغايةِ البراءة، ملامحه الهادئة، كم اشتقت إليه، اقتربتُ منه قليلًا، كنت أظنّه نائمًا، قبّلتُ جبينه بخفةٍ حتى لا يستيقظ، ثم وضعت الفطور على الطّاولة وأيقظتُه.

فتح وليد عينيه؛ ورآني واقفةً أمامه فابتسم لي...

- حمدًا لله على سلامتك، ما أجمله من صباح!

بادرته بابتسامة...

- صباح الخير؛ يا الله! كم أنت جميلٌ وأنت نائم يا وليد! تشبه الملائكة.

نظر إليّ وعلى وجهه تبدو ملامح السّعادة جليّة، ثم ضحك وقال لي:

- وماذا عنّي الآن بعد أن استيقظت؟ أأشبه الشياطين؟

ضحكت أنا أيضًا ومازحته إذ مددتُ له يدي أجذبه من جلستهِ بقوّة...

- هيا انهض كفاك كسلًا؛ اغسل وجهك وتعال لنتناولَ الإفطار والقهوة، ثم خُذ قسطًا من الرّاحة في فراشك إن أردت العودة إليه مرةً أخرى يا عزيزي.

جلس وليد بجانبي وأنا أسكب له القهوة، وأناوله سندويتش المربى، كان صوت فيروز يصدح في الأرجاء...

بعدك على بالي يا قمر الحلوين

يا زهرة بتشرين يا دهبي الغالي

بعدك على بالي يا حلو يا مغرور

يا حبق ومنتور على سطح العالي

ارتشفَ وليد من قهوته، ثم نظر إليّ وقال:

- إنّها دافئةٌ جدًا يا مريم!
- ما هي؟ القهوة!
- قبلتك.

خجلتُ وارتبكتْ؛ همهمت وجنتاي تنضحان حمرة...

- ظننتك نائمًا.
- كنت، لكن أيقظتني شفاهٌ جميلة وأنفاسٌ دافئة، وقبلةٌ أعادتني إلى الحياة من أجمل أميرةٍ رأيتها في حياتي.

سكت فجأةً فساد صمتٌ خِلته أحالَ الصّباح لقطعةٍ من اللّيل، ثم ما لبثَ أن استطرد، بينما عيناه تنعمان النّظر في حدقتيّ...

- هل تعلمين يا مريم سأعترف لك الآن بشيءٍ لم أخبر به أحدًا من قبل؛ عندما كنت صغيرًا كان يخبرني والدي ألا أبكي؛ قائلًا لي في ثقةٍ وهو يشدّ بيده على كتفي " الرجل لا يبكي، لأن الرّجال أقوياء؛ لا يبكون ولا يعبّرون عن مشاعرهم لأنّ هذا يظهرهم كضّعفاء " وكان يغضب إن رأى دموعي، ويقول لي:

" كيف ستصبح رجلًا وتتحمّل مسؤولية عائلتك وأنت تبكي كالنّساء! "

ثم لاذَ للصّمت فجأةً لبرهة من الوقت؛ استطردَ بعدها...

- هل تعلمين معنى أن يعيشَ الإنسان بلا مشاعر؟ هكذا كنت يا مريم، وهكذا عشت إلى أن أتيتِ أنتِ الآن، بكلّ هذا الحبّ والدّفء الذي أحطتِ به قلبي؛ جعلتي أشعر، أنبت في إحساسًا؛ لا شكّ أنّه كان موجودًا من قبل، لكنّني لم أشعر به؛ طمرتهُ كلمات أبي – رحمة الله عليه – إلى أن جئتِ فأزالت قبلتك ما اعتلاني من موات في لحظة، وفي نفس اللّحظة تفجرت مشاعري؛ شعرت كم كنت أحنّ إليكِ، أشتاق لعينيك؛ لصوتك، لضحكتك، لقربك منّي، جعلتي قلبي ينبض من جديد... مريم أنا أحبك... أحبك يا مريم...

لم أملك جوابًا سوى ما فاضت به عيناي من دموع، لأنه وليد...

- حسنًا أيّها الطّبيب الحالم... اذهب الآن إلى شقّتك لتستريح فقد انتهى دوامك، وأنا سأعود إلى البيت.

- سمعًا وطاعةً يا سيدتي، أنرتِ وطنك الكبير ووطنكِ الصّغير... قلبي.

كانت الحركة في البيت نشيطة منذ الصّباح، أطفال الجيران يعلّقون الزّينة، وأنا وخالتي وأم عزيز وآلاء والجارات في المطبخ نجهز الأصناف الشهيّة من التبولة وورق العنب والحلوى، فاليوم يومٌ مميّز؛ اليوم هو يوم ميلاد الصّغيرة أمل.

اجتمع الجيران والأصدقاء والأطفال، ووقفت أمل أمام قالب الكيك المزيّن على شكل باربي وهي ترتدي فستانًا ورديًا جميلًا، كانت تبدو حلوة كقطعةِ سكر، وأطفأت شموع عيد ميلادها السّابع.

صفّق الجميع وقبّلوا أمل، وتمنّوا لها أعوامًا مديدة حلوة مثلها، قدّمنا لها الهدايا، ثمّ حضر وليد وقت توزيع الهدايا وقال: " أنا آسف لتأخري، تعالي يا ليلو معي لتري هديّتك ".

حمل ليلو وتبعناهم إلى فناءِ المنزل حيث كانت هناك درّاجة ورديّة اللّون مزيّنة بألوانٍ زاهية ونقوش جميلة واقفة في وسط الفناء.

جَرت ليلو وهي تقفز من السّعادة... " لقد تحقّقت أمنيتي " وراحت تحاول قيادتها ووليد يمسك بها ويشجعها.

انتهيتُ من تنظيف الفوضى التي خلّفتها الحفلة وأخذت حمامًا دافئًا ولبست بيجامتي القطنيّة واندسست في سريري ورحت في نومٍ عميق...

لم تعد الأحلام الغريبة تراودني، وكأنني تحرّرت من ذكرياتي، وأنا الآن بحالة سلامٍ مع نفسي.

في الصب... أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أرسلَ له رسالتي، أمسكت هاتفي المحمول وكتبت له...

- مرحبًا.

ردّ سعيد على الفور.

- أهلًا، سمعت أنكِ كنتِ مسافرة، هل أحضرت لي هدية؟

كتبت له " طبعًا " وأرسلت له ملفّ مستندات...

- هذه الملفّات تفضح تورّطك في قضايا رشاوي ونصب واحتيال، احتفظتُ بها عندما كنت في بيتك وأبحث عن وسيلةٍ للخلاصِ من جحيمك، وأنت ساعدتني بوضعك هذه الملفات في مكتبك بكلّ سهولة، أنت تعلم أنني لو قدّمتها للقضاء ستخسر أشياء كثيرة... حرّيتك على سبيل المثال.

أمسكت يدي عن الكتابة لدقيقةٍ أو أقلّ بثوان، ثم واصلت الكتابة...

- ما جعلني أخفيها طوال تلك السّنين، سيصبّرني على إبقائها مخفيّة، مقابل ألا أسمعَ بك ولا أرى وجهك مجددًا.

وضغطت زر البلوك وأغلقت قصّتي معه إلى الأبد.

أخبرت آلاء بما فعلته مع سعيد، فقالت لي:

- أحسدكِ ليتني كنت قويةً مثلك...
- تستطيعين يا آلاء، تستطيعين.
- لكنّي أحبّه، أفتقده.
- تعلمين يا حبيبتي لو أمكنك إفراغ مساحات قلبك التي يحتلّها هذا الرّجل، لو أمكنك تصفية ذهنك من هوسكِ به، سوف يأتي الحبّ الحقيقيّ ليملأ قلبك وحياتك.

يا له من صباحٍ جميل! شمسٌ دافئة، مروجٌ وأشجار وأزهار ملونة، أطفالٌ يلعبونَ ويطاردون الفراشات التي تطير محلقةً في السّماء.

كنّا عائدتين من الحديقة أنا وآلاء، وليلو تسبقنا بدراجتها ونحن نتبادل الأحاديث ونضحك، عندما فاجأنا صوته...

- لقد أحضرت لكِ هذه؛ تفضلي.

كان المتحدث سامح خطيب آلاء، قدّم لها باقة الورد ثم أكمل...

- افهمي يا لولي... أنت لي... ملكي أنا، أنا فقط، هل ظننتِ أنك قادرة على أن تتجاوزيني؟! أعطني فرصةً لأشرحَ لكِ كل شيء.

كانت آلاء تتمنّى لو تخرسه... لقد فات أوان التّبرير، لا تريد أن تسمعَ شيئًا عنه ولا شيئًا منه، أو عن أعذاره؛ القصّة انتهت، هو لم يفهمها ولن يفهمها، كما أنّه لم يَعد يهمّها.

أكمل حديثه...

- لقد كنت أمرُّ بفترةِ ضغطٍ وانشغالٍ ومشاكل، ولم أرد أن أحادث أحدًا؛ لذلك فضّلت أن أبتعد، لكنني أكيد لن أتركِكِ وحدك، أنتِ خطيبتي وسنتزوّج قريبًا، عندما تتحسّن ظروفنا طبعًا.

أمعن النّظر في عينيها، لمحَ تأفّفها، لكنّه تغافل...

- لن تصدّقي كم أنا مشتاقٌ لكِ يا خطيبتي الجميلة.

أخيرًا نطقت آلاء وبنبرةٍ حادة:

- سابقًا... خطيبتك سابقًا... لقد انتهى كلّ شيءٍ بيننا، تركتني من غير سبب، تحمّلتك سنتين وتحمّلت تقلّباتك، أضع لك الأعذار وأصالحك وأراضيك.

كم رجوتك وتوسلتك أن لاتهملني ، لن يأخذالأمر من وقتك سوى دقائق تسأل بها عني وعن يومي وأحوالي ،تشعرني بأهتمامك تشعرني بحبك وتطمئنني .

أنت أكثر شخصٍ ظلمني بحياتي لأني أعطيتكَ كلّ شيء...

فتحتُ لك قلبي وقلتُ لك تفضّل، والنّتيجة إهانة مشاعر وإهمال واستهزاء، خُذ باقة ورودك وانصرف، أنا لست لعبةً بين يديك... افهم ذلك جيدًا يا سامح؛ لقد تجاوزتك تمامًا... ولو كانت روحي متعلّقة بك فلا أريدها، فأنا لا أحمل لك في قلبي سوى الكره، ارحل من هنا ولا تَعد فقد كسرتُ وراءَك كل الجرار، وأسدلت السّتارة على حكايتنا.

أكملنا طريقنا مبتعدين عنه وسط صدمة سامح وذهوله، تلفّت حوله يمنةً ويسرة، ثم عَدل هندامه وحمل الباقة بيدهِ وعاد أدراجه خائبًا.

كنا نشرب القهوة على البلكونة أنا وخالتي عندما قالت لي:

- مريومة لقد أجّلت الحديث بهذا الموضوع إلى ما بعد عيد ميلاد أمل، ولكن والدك مريض وزوجته تخلّت عنه وهجرته وسافرت إلى أولادها في الخارج لأنها لا تريد أن تعيشَ ممرضةً بقيّة حياتها و...

- لا تكملي يا خالتي هيا بنا إلى أبي.

نسيتُ كلّ ما حدث بيننا عندما رأيته مستلقيًا على فراشِهِ والممرّضة تقوم بخدمته، أين أبي بقوّته وهَيبته، ما أضعف الإنسان وما أسرع أن يتبدّل حاله، عانقته وبكيتُ على صدرهِ طويلًا، مسح على رأسي وقال لي: سامحيني يا ابنتي لقد كنت والدًا عاقًا، ثم أكمل...

- كل يوم السّاعة ٥ مساءً كنت أخرج إلى الحديقة القريبة من بيت خالتكِ أتأملكِ أنتِ وأمل، أراقبها وهي تلعب وأشبع نظري منكما، أتمنى لو أركض نحوكما لأحتضنكما، ألوم نفسي كثيرًا، وأنتِ منذ أن عدتِ إلى هنا قاطعتينا نهائيًا رفضتِ حتى المال الذي كنت أرسله لمساعدتك، رفضتِ أن أمدّ يدي.

بكيت وقلت له: أنت إذًا سانتا الطّيب، سامحني يا أبي، سيعود كل شيءٍ كما كان وأفضل، وستتحسّن صحتك بإذن الله.

قال والدي: ستستلمين أنتِ كلّ أعمال الشركة، وإذا كان لديك أيّ مطالب أو اقتراحات اطلبي فقط وسأحقّقها لكِ .

قلت: ستعود أنت إلى الشركة يا أبي بإذن الله بعد أن تتحسن صحتك ، لكن هذا لا يمنع أن لديّ بعض الأمنيات .

- أؤمريني يا ابنتي.

أريد أن أنشأ مكتبةً في القرية، ليتمكّن الجميع من القراءة، تلك كانت أمنية صديق قديم.

قال والدي: جميل جدًا... بارك الله فيك.

أكملت... وهناك أمنية أخرى ،لكني سأؤجلها إلى وقتٍ آخر.

وسط الآلاف من الحجاجِ الذين تطوف أرواحهم كحمائم من نورٍ حولَ الكعبة، المتربّعة في قلبِ العالم، ونفوسٌ تلهج بالدّعاء وترسل ابتهالاتها إلى السّماء، وأصواتٌ تصدح بالتّلبية " لبيك الله اللهم لبيك... "

وهل الحياة إلا تلبيةً لنداءِ الله؟!

كنا نطوف مع الحجاج، ممسكةً بيميني يد زوجي وليد، وبيسراي طفلتي أمل التي كانت منذ دقائق تحثّ الخطى لتلحقَ بنا.

يتقدّمنا ببضع خطوات والدي، وخالتي التي تحمل بين ذراعيها جاد طفلي الرّضيع، وصلت إلى الركن اليماني؛ رفعت يمناي صوبَ الكعبة ودعوت...

" اللهم ألّف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا واهدنا سُبل السّلام، اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ".

تمّت بحمدِ الله وتوفيقه

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بطاقة الكتاب	
إهداء	1
مقدمة	2
نداء الغواية	5
ملاذي الآمن	17
الخالة أم وليد	23
عودة الغائب	27
وليد	29
الزواج التعيس	33
المواجهة	37
ذاكرة الجسد	44
حكاية ماقبل النوم	48
الفصل الثاني:" منتصف الليل في الإسكندرية	50
اللّيلة الأولى	55

اللّيلة الثانية	67
بين الكتب	79
الليلة الثالثة	82
الليلة الرابعة	92
مدينة العشق والياسمين	102
الفهرس	113